القَطْرَة والمُحيط

مَسارُ روحٍ بين الفَقْد واليَقَظَة والعَوْدة

فرانسوا وائل بَيضون

القَطْرَة والمُحيط

سيرةُ عَوْدةٍ إلى الواحد

فرانسوا وائل بَيضون

سيرة ذاتيّة

⌘

حقوق الطبع والنشر

© ٢٠٢٦ فرانسوا وائل بَيضون — جميع الحقوق محفوظة.

هذا الكتاب طبعةٌ مُنَقَّحة ومُوَسَّعة من «مَسارُ العَوْدة — بين الأرض والنجوم — درب الحالم المُستيقظ». صُحِّحَت بعض التواريخ، وحُذِفَت الرسوم والأُطُر والتمارين لِصالح قراءةٍ أكثر انسياباً. أُغنِيَت بعض الفقرات بذكرياتٍ وتفاصيل لم أَكُن قد قَدَّمتُها في الطبعة الأولى.

يَملك المؤلّف كاملَ الحقوق العالميّة على هذا العمل وعلى ترجماته. هذه الطبعة لا تنتمي إلى الملكيّة العامّة.

ترخيصُ نَشرٍ غير حصريّ مَمنوحٌ لِمَنَصّة «جوجل بلاي للكتب» ولمَنَصّاتٍ رقميّةٍ أخرى.

يُمنَع منعاً باتّاً أيُّ نَسخٍ أو اقتباسٍ أو نَقل لهذا المنشور، ولو جزئيّاً، بأيّ وسيلةٍ كانت، من دون إذنٍ خَطّيٍّ مُسبَقٍ من المؤلّف، باستثناء الحالات التي يُجيزها القانون.

ترجمة ومراجعة

النصُّ الأصليُّ لهذا الكِتابِ مَكتوبٌ بالفَرَنسيّة. تَمَّت تَرجَمَتُهُ إلى العَرَبيّةِ بمُساعَدَةِ ذَكاءٍ اصطِناعيٍّ مُتَقَدِّم («Claude»، شركة Anthropic)، تحتَ إشرافِ المؤلِّفِ ومُراجَعَتِهِ المُستَمِرَّة.

تَفَضَّلَت السَّيِّدَتانِ إيمان بَيضون وسوزان بَيضون، شَقيقَتا المؤلِّف، بمُراجَعَةِ كُلِّ فَصلٍ من هذه التَّرجَمَة، مُقَدِّمَتَينِ وَقتَهُما وخِبرَتَهُما اللُّغَوِيَّةَ بسَخاءٍ تامّ. لَهُما من المؤلِّفِ امتِنانٌ عَميق.

المعلومات القانونيّة

الطبعة الأولى — نَشرٌ ذاتيّ (إصدار: فرانسوا وائل بَيضون).

الإيداع القانوني: حزيران ٢٠٢٦ — المكتبة الوطنيّة الفرنسيّة (BnF).

رقم الكتاب الدوليّ (ISBN) — النسخة العربيّة:
٩٧٨-١٠-٩٧٩٩٨٣-٤-٩

⌘

الفِهرس

المقدّمة ٧

الفصل الأوّل — ثَقَلُ الأصول ١١

الفصل الثاني — ما باح به قلبُها ٢٩

الفصل الثالث — جُرحُ الأب ٣٥

الفصل الرابع — ليلة الروح المظلمة ٤٥

الفصل الخامس — انبِثاق الكوندالينيّ ٥١

الفصل السادس — نِداءُ الآياهواسكا ٦٩

الفصل السابع — القُدُراتُ المنسيّة ٨٥

الفصل الثامن — شانيا ٩٩

الفصل التاسع — الأَندَلُس ١٠٥

الفصل العاشر — نادي شاسترا ١١٣

الخاتمة ١٢٤

⌘

المقدّمة

ينبغي علينا أحياناً أن نَقبَل بأن نَضيع، لِنَجد أنفُسَنا أخيراً.

لقد جَهِلتُ ذلك زمناً طويلاً. سنواتٍ كثيرة، خَلَطتُ بين الفَقد والإخفاق ـــ فَقدِ اليقينيّات، فقدِ الإيمان، فقدِ الأحبّاء، فقدِ الحياة التي كنتُ قد تَخَيَّلتُها لِنفسي. ولَزِمَني وقتٌ طويل، وحَظٌّ من العَتمة، لِأَفهم أنّ كلَّ خسارةٍ من تلك الخسارات كانت في الحقيقة باباً.

هذا الكتاب هو قصّةُ تلك الأبواب. وقصّةُ ما وَجَدتُه، في كلّ مرّة، من الجهة الأخرى.

أُهدي هذه الصفحات إلى والديَّ، اللذَين صاغ حُبُّهما وتضحياتُهما الرجلَ الذي أصبحته. إلى أمّي، التي عَلَّمَتني أنّ البَصمات التي نَتركها وراءنا أَثقَلُ من كلّ ما نُراكمه. وإلى أبي، الذي حَكَمتُ عليه بِقَسوةٍ أكثرَ ممّا ينبغي، ولِزمنٍ أطولَ ممّا ينبغي، والذي انتهيتُ إلى أن أَستقبِل حُبَّه الناقص بامتنان.

إلى كلّ مَن يَشُكّ، ومَن يَتَرَنَّح، ومَن يَبحث عن طريقه في الظِلّ، أُقَدِّم هذه الشهادة. لا لِأُقنع. لِأُذَكِّر فقط بأنّ القوّة الأكثر صَمتاً كثيراً ما تَتجلّى في لحظات السقوط.

وإلى كلّ مَن يَعيشون في صَمتٍ أشياءَ لا يَعرفون كيف يُسَمّونها ـــ حضوراتٍ يَلمحونها، تَزاماناتٍ تُحَيِّرهم، حَدساً يَتجاوزُهم ـــ،

أُقَدِّم هذه الصفحات أيضاً. لستم وحدكم. لستم مَجانين. شيءٌ حقيقيٌّ يَعبُركم، وثَمّةَ كلمات، أحياناً مُتَعَثِّرة، لِقَوله.

في الثانية والستّين من عمري، أَحسَستُ بنداءٍ يَدعوني إلى الكتابة. لا لِأَشرح. لا لِأُبَرهِن. لِأَشهَد فقط على حياةٍ حميمةٍ كونيّةٍ في آن، مَنسوجةٍ من اختياراتٍ حاسمة، ومن لقاءاتٍ تُحَوِّل، ومن لحظاتٍ مُعَلَّقةٍ حيث جَعَلَ اللامرئيُّ نفسَه مَحسوساً.

كلُّ مرحلةٍ من هذا المسار كُتِبَت في حوارٍ صامتٍ مع ما أُسَمّيه «الواحد». مَنبَعَ الصَفاء، الوَحدة، الرابطة — الذي عَرَفتُه بأسماءٍ كثيرة وتَعَرَّفتُ إليه في صُوَرٍ كثيرة، لكنّه، في الحقيقة، لم يَكُن غائباً أبداً.

سيَطلب منكم هذا الكتاب أن تُعَلِّقوا شَكَّكم. لا لِتُؤمنوا. لِتُصغوا. ما أَصِفه عشتُه — بلا تَرَتُّب، بلا عَقيدة، بلا مُعَلِّم. إن بَدَت لكم بعضُ الصفحات غريبة، فذلك على الأرجح لأنّها كذلك. الواقع، أحياناً، أَوسعُ بكثير من الأُطُر التي نَحبسه فيها.

هذا الكتاب يَعبُر حدود المعلوم. يَستقبل اللامرئيَّ، والمَجهول، والحقيقةَ العاريةَ لِتجاربَ تَستعصي على التصنيفات المُطَمئنة. لا أَدَّعي أيَّ حقيقةٍ مُطلقة — فقط صِدقَ ما عشتُه. للقُرّاء ذوي الحَساسيّة العقلانيّة، أَتمنّى أن أُقَدِّم لا دعوةً إلى الإيمان، بل دعوةً إلى البقاء مَفتوحين. ولأولئك الذين أَحَسّوا فعلاً بنداءِ حضورٍ أوسع، فلَعَلّ هذه الصفحات تَجد صَدىً في مسارهم الخاصّ.

ما عشتُه لا شيءَ فيه استثنائيٌّ ولا هامشيّ. هو، كما أُؤمن اليوم، تذكيرٌ — بذاكرةٍ كونيّةٍ نَحمِلها جميعاً، وقد نَسيها معظمُنا ببساطة.

عسى أن تَصير هذه الكلمات منارةً لِكلّ الباحثين عن معنى.

وعسى أن تُذَكِّر بأنّ النور، حتى في أَحلَك لياليا، لا يَكون بعيداً أبداً.

لأنّنا وُلِدنا من الواحد...

وإليه نَعود.

⌘

الفصل الأوّل

ثَقَلُ الأصول

بيروت، الأعوام ١٩٦٢–١٩٨٤ — جذورٌ عائليّة

الجذور الأمومية

سِرٌّ يُهمَس به

كانت تنتظر حتى يُغادر الآخرون الغرفة.

حينئذٍ — ويداها لا تزالان على ظهري، خفيفتَين بلا عجلة، يَدان تعلَّمتا أن تُعطيا بلا طلب — تنحني نحوي جدّتي وتُهمس، كما لو أنّ الجدران ذاتها قد تَسمع:

« عندك نفس الأصالة يلّي كانت عند جدّك. »
صمت. ثمّ، بصوتٍ أخفض:

« بس ما تقول لَحدا. »

كنتُ طفلاً. لم أكن أفهم كلّ شيء. غير أنّي كنتُ أفهم هذا: ثمّة رجلٌ لا يُلفظ اسمُه، لا تنجو ذكراه إلا في الهمسات — وأنا أحملُ في داخلي — دون أن أدري كيف — شيئاً منه.

كان اسمه فَوْزي. جَدّي لأمّي. اختطفه المرض في الثانية والثلاثين، قبل أن أُولَد، قبل أن يتعلَّم معظم أفراد العائلة كيف يعيشون بدونه. غيابُه صاغ كلّ شيء ـــ الصمتَ حول المائدة، النَذرَ الذي قطعَتْه جدّتي ولم تَنكُثه يوماً، الثروةَ التي لم تَعُد، والمرأةَ التي صارَتها أمّي.

لِفَهمِ من أين جئتُ، لا بدّ من البَدء به. ممّا تركه خلفه ـــ وممّا هدمَه غيابُه.

حُبٌّ كُسِرَ باكراً

كانت جدّتي لأمّي امرأةً متعدّدةَ المواهب ـــ قامةً محوريّةً مُلهِمةً في عائلتنا. طاهيةٌ بارعة، عارفةٌ بالطبّ العربيّ التقليديّ، حَكَّاءةٌ لا مثيل لها، كانت تُضيء حياتنا بطريقتها. كلّ مساء، كانت تقرأ لِفَوْزي حكايةً من «ألف ليلة وليلة»، مأخوذةً من المجلَّدات السبعة الفاخرة، المُزدانة بمنمنماتٍ بديعة، التي كان قد أهداها لها.

كانا ثنائياً غارقاً في الحبّ، لا يفترقان ـــ إلى أن باغتَهما القدرُ بضربته الأقسى. عَدوى فاتكةٌ خاطفة اختطفَتْه. كان في الثانية والثلاثين.

موتُه المبكِّر قَلَب عالَمَ جدّتي رأساً على عقب، وحَسَمَ مصيرَ العائلة بأكملها إلى الأبد.

الصُبحيّة ـــ أناقةُ الصباحاتِ البيروتيّةِ الأسبوعيّة

قبل أن يَهوي القدر، كان بيتُهما يُشِعّ. كان محراباً، فضاءً للدفء والتقاليد والأفراح المشتركة. جدّتي، وهي خفيفةُ الهَمّ في تلك السنوات، كانت تَعزف على العُود أو القانون بخِفّةٍ تُحيل كلَّ لحظة إلى ذِكرى لا تُنسى. هاتان الآلتان الشرقيّتان التقليديّتان، الموروثتان مباشرةً من العهد العثمانيّ، كانتا تحملان روحَ زمنٍ بأكمله.

كانت تَعزف لِزوجها، لِصديقاتها، أحياناً وهي ترتدي بَدلةً رجاليّة، شعرُها مَقصوصٌ قَصّةً صَبيانيّة قصيرة، مُتَّكِئةً على عصا — جُرأةٌ كانت تَفتِن كلَّ من يراها.

في كلّ أسبوع، كانت تَستقبل ضيفاتها في الصُبحيّة، تلك اللقاءات الصباحيّة التي يتمازج فيها الرُقيّ والبساطة في تناغمٍ بديع. كانت السيّدات يَجلسنَ بأناقة، يَخدُمهنّ نُدُلٌ يُستأجَرون للمناسبة من المقهى نحاسيٌّ (samovar) المجاور. في وسط الغرفة كان يَتربَّع سَموَفَرٌ مهيب — تلك الغلّايةُ الشرقيّةُ الكبيرة التي يُحضَّر فيها الشاي ويُسكَب منها للضيوف — رمزٌ مُتألِّق لِفنّ الاستقبال. كان حضوره يَلُفّ المكان بدفءٍ آسر، وكان شايُه الفائر يُرافق الأحاديثَ المتدفّقة والقهقهات. هذه الصباحات الحميمة كانت تبدو مُعلَّقةً خارجَ الزمن — كأنّ لا شيء، أبداً، يُمكن أن يَكسرها.

ومع ذلك، شيءٌ ما كَسَرَها.

حياةٌ قَلَبها الحِداد

موتُ فَوْزي المُباغِت كان مُنعطفاً لا رَجعةَ فيه في حياة جدّتي. مُهتزّةً في الأعماق، نَطَقَتْ نَذراً جليلاً: لن تَعزف موسيقى بعد اليوم، لن ترقص، لن تُغنّي، ولن تَلبس السواد بعد هذا الحِداد الأخير — الذي وَسَمَتْه بِوَقارٍ نادر. تحيّةٌ فريدةٌ لِلرجل الذي أحبَّتْه إلى هذا الحدّ، والذي ترَكَ غيابُه فراغاً هائلاً، فيها وفي العائلة كلّها.

الكلامُ عن فَوْزي صار، شيئاً فشيئاً، نوعاً من المُحرَّم في البيت. معظمُ أفراد العائلة جَهِلوا الظروفَ الحقيقيّة لِموته، ممّا لم يَزِد الصمتَ إلّا كثافةً. وماذا تبقّى من إرثه؟ رغم أنّه ترَكَ خلفه ثروةً ضخمة — متاجر في قلب بيروت — انهار رخاؤهم بلا إنذار. كلّ أموالهم، المُستَثمَرة في شبكة سكك حديد العابر السيبيريّ المرموقة، تَلاشَتْ إثرَ تأميم سكك الحديد الروسيّة في أعقاب الثورة البَلشفيّة عام ١٩١٧.

رجلٌ مُحِيَ اسمُه. ثروةٌ تَبدَّدَتْ. اسمٌ مَمنوع.

وجدّتي، وحدها مع ستّةِ أولاد، وحَزَنٌ ستَحمله، شامخةً صامتة، إلى آخر أيّامها.

كِفاحٌ من أجل البقاء

في وجه الانهيار، تحمَّلَتْ جدّتي وحدها عبءَ تربية أولادها الستّة. أمّي، الابنةُ الوحيدة وبِكرُ الإخوة، اضطرَّت أن تتنازل عن أحلامها

في الدراسة لتلبية الحاجات المُلِحّة للعائلة. في الثامنة عشرة من عمرها، تركَتِ المدرسةَ لِتُصبح مُعلِّمة، تأخذ بيدها — بنُضجٍ مُبكِّر وقوّةٍ داخليّة لافتة — مصيرَ إخوتها.

حقبةٌ من تضحياتٍ هائلة وخياراتٍ صعبة — لكنّها أيضاً حقبةُ شخصيّةٍ لا تَنكسر، أرسَتْ أساساتِ عائلتنا.

طقوسٌ تَفِيضُ روحانيّة

رغم المِحَن، عرفَت جدّتي كيف تَحفظ التوازن — الروحيّ بقدر تلك التي (chamane) العائليّ. كانت أيضاً تَحمل دورَ الشامانة كانت تَقودنا حُفاةَ الأقدام عَبرَ موقد الجَمر القائم في قلب مطبخها، وسطَ لَفّات البَخور، وهي تُتمتم بِسُوَرٍ من القرآن. ذلك الطقس — المقصودُ به طَردُ العين الشرّيرة، أو المُنجَزُ مجرَّدَ احتراز — كان شهادةً على تَقواها وعلى تشبُّثها العميق بالتقاليد.

كلَّ صباح، كانت تَجمع العائلةَ في صالونها الفسيح. كنّا نَصِل غالباً بثياب النوم، تجذبنا رائحة قهوتها الدافئة. كانت تُعِدّ نُسختَين: قهوةً تركيّةً مُرَكَّزة، وقهوةً فوريّة — المُفضَّلة عندها، وعند فيليسيتاس (Felicitas)، كَنَّتِها الألمانيّة التي كانت تُناديها « فيه » (Fé)، زوجةِ خالي المحبوبة. هذا الطقس الصباحيّ، البسيط والدافئ، كان يَقول بِصمته ائتلافَ عائلةٍ لِكلٍّ فيها مكانه.

في الساعات المُتاحة، كانت تَكشف موهبةً أخرى: الخِياطة، التي تَخصُّ بها أحفادها وحدهم. كانت أمّي تَلعب دورَ المُصمِّمة. مُستَلهِمَةً من الواجهات الأنيقة في شارع الحَمراء، كانت تَرسم خَطاطاتٍ سريعة تَعهَدُ بها إلى جدّتي. وكانتا معاً تَذهبان إلى سوق بيروت العتيق لاختيار الأقمشة والأزرار والسحّابات، تُتوّجان جولاتهما بِجلسات مساومةٍ شرقيّةٍ أصيلة — تَنتهي عادةً حول فِنجان قهوةٍ يُقدِّمه البائع الراضي.

كنتُ الأصغر، والوحيد المسموح له بمرافقتهما في هذه النُزهات. كنتُ أُراقب في صمت استراتيجيّاتهما الدقيقة لانتزاع أفضل الأسعار، مُتعلِّماً فنَّ المساومة الرقيق — لا سيّما تلك اللحظة الحرِجة حين كانتا تتظاهران باللامبالاة وتُوَلّيان الظهر، لِتدفعا البائع إلى التسليم. بعد تلك اللحظات المُكثَّفة، كنّا نَمنح أنفسنا استراحةً شهيّة: كأسَ جَلّاب، أو كوكتيلَ فواكه طازجة. كأسي أنا: دائماً فراولة وموز، أتذوّقه تحت نظرة أمّي الحانية وابتسامتها.

إرثٌ من الحَنان والتوريث

ما وراء هذه الأفراح المشتركة، كانت جدّتي تَدَّخر لي لحظاتٍ من جودةٍ أكثر نُدرة. أحياناً، حين كانت تَجد فُسحةً في جدولها المزدحم، كانت تَأتي لِتُوقِظَني بِتدليكٍ خفيف على ظهري، تُسَكِّن آلامَ جَنَفي. يداها، الخفيفتان المليئتان بالحَنان، كانتا تَستقرّان عليّ كَكَفَّي قِطّ،

تَنقلان حُبّاً بلا شرط. ما إن تَنتهي اللَفتةُ كنتُ أُقَبِّل يدها امتناناً — وفي اندفاعةِ عُذوبة، كانت تَقلب يدي لِتُودِع فيها قُبلة.

في تلك اللحظات تماماً كانت تُهمس لي بالسرّ. سرَّ الجَدّ الذي لا يُنطَق اسمه. سرَّ الشَبَه. سرَّ ما كان عليّ ألّا أَبوح به لأحد.

حَفِظتُه. ولا أزال أحفظه.

ظَمَأٌ إلى المعرفة، في وجه العواصف

رغم ثِقَل الابتلاءات العائليّة، لم تَتخلَّ أمّي يوماً عن رغبتها في التعلُّم. بعد أن رَبَّت أولادها الأربعة، وجدَت الشجاعة لاستئناف دراستها بينما كنتُ ما أزال صغيراً. وفيما بعد، في خِضَمّ الحرب اللبنانيّة — وأولادها مُبَعثَرون في أصقاع الأرض — حوَّلَت وحدتها إلى إنجاز، تُتابع دراساتها العليا بإصرارٍ لا يَلين. وقد تَوَّجَت هذا الالتزامَ بِنَيلِ شهادة الدكتوراه. برهانٌ ساطع على أنّه لم يَفُت الوقت أبداً لتحقيق أعمق الطموحات.

قاماتٌ من شَجاعةٍ نسائيّة لا يَطويها زمن

مَسارُ أمّي وجدّتي يَظَلّ بالنسبة لي مَنبَعَ إلهامٍ لا يَنضَب. طريقتُهما في عُبور المِحنة بقوّةٍ هادئة شَكَّلَت في العُمق التزامي بِحقوق النساء.

هذه الذكريات تَسنُدُني كلّ يوم. تَحفظ حيّاً حضورَ هاتين المرأتين الاستثنائيّتين، اللتين عَرفَتا كيف تُؤلِّفان بين حُبٍّ لا يَبلى وشجاعةٍ صافية. ستَبقَيان دائماً، في عَينَيّ، الكرامةَ والصلابةَ مُجَسَّدَتَين.

الجذور الأبويّة

امتنانُ غريبٍ

كان عشاءً في الطابق الأخير من معهد العالم العربي في باريس. لم تَكُنِ السهرة استثنائيّةً في شيء — حتى تلك اللحظة التي اقترب فيها نادلٌ لبنانيٌّ من طاولتنا بِتردُّدٍ استرعى انتباهي. بدا مُحرَجاً، مُتأثِّراً، وكأنّه يَجمع شجاعته منذ بُرهة.

« عَفواً، سيّد بَيْضون... »

تَوقَّفَ لحظةً.

« بتِعْرِف شخص إسمو ديب بَيْضون؟ »

لمّا أجبتُه بنعم — وأنّ ديب هو جدّي — تَغيَّرَ شيءٌ في وجهه. شرَع يَروي بصوتٍ خافت زمناً بعيداً، حين تَلقَّت أمُّه، الأرملةُ المُعدِمة، عَوناً من رجلٍ اسمه ديب بَيضون. لم يُضِف تفصيلاً واحداً. لم يَكُن بحاجة. بدلَ ذلك، أمَرَ بأن يُقَدَّم إلى طاولتنا طَبَقٌ من الفاكهة اللبنانيّة بِفَخامةٍ تَليق بمأدبةٍ ملكيّة، مَصحوباً بكأسِ كونياك

من العَتيق — لَفتةُ امتنانٍ على درجةٍ من الصدق جَعَلَت الطاولة بأكملها تَلوذ بالصمت.

في طريق العودة تلك الليلة، كنتُ أُفكِّر بِجَدّي. بذلك الصِنفِ من الرجال الذين يَتركون أثراً من هذا النوع — لا في الأنصاب ولا في عناوين الصُحُف، بل في الذاكرة الحميمة الدائمة لأناسٍ ربّما لم يُلاقِهِم سوى مرّةٍ واحدة.

ديب بَيضون. مختارُ الأشرفيّة سابقاً في بيروت. جنديٌّ، صناعيٌّ، ربُّ سُلالة. رجلٌ كان كَرَمُه بلا حدودٍ يُلهِم بقَدْر ما يُثير الاستياء، أحياناً، عند أَحَبِّ الناس إليه.

هذه قِصَّتُه. وهي، من جوانب كثيرة، قِصَّتي أنا.

وجهٌ آخر من الأصول

من جهة الأب، كان جدّي ديب يُجسِّد بُعداً قويّاً ورمزيّاً في جذورنا العائليّة. جنديٌّ في الجيش العثمانيّ، كرَّسَ حياتَه بعد الحرب العالميّة الأولى لِبناءِ ما لا يُمكن وصفُه إلّا بأنّه إمبراطوريّةٌ صناعيّةٌ صغيرة.

في السادسة عشرة من عمره، أُجبِرَ على الالتحاق بالقوّات العثمانيّة، تاركاً وراءه أمّاً وأختاً بلا حماية. غير أنّ شيئاً فيه رَفَضَ أن يَنكسر. مَدفوعاً برؤيةٍ جريئة وروحِ ريادةٍ عميقة، انتهى إلى تأسيس مصنعَين للنسيج ومَعمَلٍ للتبغ، أَطلَقَ عليه رمزيّاً اسم

«الوَحدة». كان هذا الاسم يَحمل مُثُلَه العُليا في التضامن والقوّة في وجه الشدائد. كما جعَلَ منه هَدَفاً.

في ظِلّ الإدارة الفرنسيّة ـــ الحديثة العهد بالاستقرار في المنطقة بعد سقوط الإمبراطوريّة العثمانيّة وحليفتها ألمانيا ـــ فُسِّرَ التزامُه بـ«الوَحدة» على أنّه فعلٌ تخريبيّ. رأَت السُلُطات فيه دعوةً إلى التمرُّد، وتهديداً في مناخٍ لا يزال مُتزَعزِعاً، فحَكَمَت عليه بثلاثين يوماً من الاعتقال.

كان في السابعة والعشرين حين خرَجَ.

بُعَيد الإفراج عنه، خَلَّدَ ديب هذه الواقعة في استوديو تصوير. في تلك الصورة، التي صارت معلَماً في تاريخ عائلتنا، يَظهر جالساً، يَعتمر طَربوشَه، يَرتدي جَلّابيّةً بأناقةٍ بسيطة. نظرتُه، الهادئةُ الواثقة، تَخترق العَدسة بكثافةٍ صامتة. شارباه المُلتَفّان بعنايةٍ يُضيفان إلى وَقاره. في تلك الهيئة يَجتمع سلامٌ داخليٌّ لا يُقتَلَع، ووفاءٌ لا يَتزعزَع لِمبادئه. رجلٌ سُجِنَ من أجل أفكاره ـــ ما كان يَنوي قَطّ أن يكون أحداً سواه.

دلالةُ اسم ديب

وُلِدَ في عائلةٍ كانت قد طُبِعَت بالفَقد ـــ كان والداه قد دفنا طفلَين قبله ـــ فاختيرَ اسمُه، ديب، الذي يعني الذِئبَ في العربيّة، كَتَعويذةٍ ضدّ النَحس. ووفاءً لهذه الرمزيّة، تَحدَّى كلّ التوقُّعات وعاش ما

يَقرب من القرن، ليصير ركيزةَ سُلالةٍ، مُجَسِّداً حتى النهاية تلك القوّةَ والحمايةَ اللتَين كان اسمه يُوحي بهما.

كَرَمٌ خارج المألوف

غير أنّ هذه القوّة كانت تُعبِّر عن نفسها أيضاً بطرائق كانت تُحَيِّر — وأحياناً تُغيظ — عائلتَه نفسها.

كان ديب رجلَ كَرَمٍ اندفاعيّ، يَكاد يَكون مسرحيّاً. يُعطي بلا حساب، بِحُريّة، وغالباً لأناسٍ لا حقَّ لهم في ثروته. كانت نقاشاتٌ حامية تَنشب بين أبي وأخيه وسائر أفراد العائلة حول ما اعتبروه تبديداً للأملاك. عادتُه في التوزيع على غرباء أو على عابرين كانت تَصطدم بِعُنفٍ مع طموحات الذين تَمنَّوا أن تَعود نجاحاته بالنفع على الذُرِيّة.

وذاتَ يومٍ، حين عاتَبَه أبي على هذا الإفراط، أجاب ديب بهدوءٍ ممزوجٍ بسلطة:

« أنا كوّنت ثروتي لحالي، ما حَدا عَطاني ياها. إذا بَدَّك تعمل متلي، اشتغل وابنيها، بدل ما تنطر وَرتة أبوك. »

قاطعٌ. صادق. وصارمٌ صرامةً مُطلقة.

لم يَكُن يُؤمن لا بالتوريث السلبيّ ولا بالاتّكال. كان يُؤمن فقط بالجهد الشخصيّ، بقدرة كلِّ امرئٍ على صياغة مصيره. سواءٌ

شاطَرَه المرءُ فلسفتَه أو لم يُشاطرها، كان مُستحيلاً ألّا يَحترم ذلك الوضوحَ الذي حَمَلَها به.

لَفتةُ كَرَمٍ في النّاعِمة

تَحكي حكايةٌ تَناقَلَتْها الأجيال في العائلة الرجلَ كلَّه. خلال زيارةٍ لمصانعه وأراضيه على شاطئ النّاعِمة، أُعجِبَ نائبٌ شابّ — سيُصبح رئيسَ وزراءٍ لاحقاً — بِجَمالِ قطعةِ أرض. وفاءً لطبعه، أَهداها له ديب في اللحظة نفسها. بلا أيّ مُداولة. بالنسبة له، لم يَكُن ذلك سوى تعبيرٍ عن نُبلِ الروح — لا حساباً لمصلحة.

إرثٌ شخصيّ

في التاسعة من عمري، رأيتُ هذا الكَرَمَ بأمّ عينَيّ — في صورةٍ متواضعةٍ إلى حدٍّ ظلَّت معها تُرافقني منذ ذلك الحين.

كنتُ أُراقبه يَقُصّ أظافره بمِقَلِّمةِ أظافر صينيّةٍ صغيرة. كنتُ أتأمَّله بتلك الفِتنة التي يَدَّخرها الأطفال لأَبسَط الأشياء. بلا كلمة، مَدَّ يدَه بها إليّ.

« خدها. »

تَردَّدتُ. أصَرّ. وَافَقتُ بِخَجَل.

ما لم أَكُن أَستطيع أن أَعرفه آنذاك، هو أنّي لن أَستخدم غيرَها أبداً. منذ ما يَزيد على خمسين سنة، هذه المِقَلِّمةُ الصغيرة هي التي أُمسِكها في كلّ مرّة — وبعد كلّ هذا الوقت، لا تزال تَقُصّ تماماً

كما كانت يوم وَضَعَها في يدي. لا أَعرف كيف أُفسِّر ذلك. ولستُ على يقينٍ من حاجتي إلى تفسيره.

في كلِّ مرّةٍ أَستخدمها، أتذكره. لا في المصانع، ولا في قِطَع الأرض المُهداة باندفاعةِ قلب، ولا في الوزراء الذين حضروا عُرسَ ابنه — بل في هذا: مِقَلِّمةُ أظافر صينيّة صغيرة، انتَقَلَت من يدِ رجلٍ مُسِنٍّ إلى يدِ طفل، في مكانٍ ما في بداية السبعينيّات. لَفتةٌ من البساطة بحيث كان يُمكن ألّا تَعني شيئاً. عوضَ ذلك، نَجَت من كلِّ شيءٍ تقريباً امتلكتُه يوماً.

هذا كان ديب أيضاً. رجلٌ يُعطي ثرواتٍ بالخِفّة نفسها التي يَمُدّ بها مِقَلِّمةَ أظافر إلى طفل — كأنّ لا شيء يَستحقّ فعلاً أن يُحتَفَظ به، ما دام آخَرُ قد يَرغب فيه. ومع ذلك، عبر خمسين سنة وكلِّ ما تَغيَّر فيها، هذا الشيءُ الصغير جدّاً، هو وحده بَقي.

الزواجُ مَسرحاً للسلطة

كان هذا الكَرَم يَتجلّى أيضاً في النطاق العائليّ — لا سيّما في زواج والديّ.

كانت أمّي، الكَنّةَ المُفضَّلةَ عند ديب، تَقوم أحياناً بدور الوسيطة لِنَيلِ بعض الامتيازات داخل العشيرة. ظَلَّت روايةُ الخِطبة والاحتفال راسخةً في ذاكرة العائلة: شخصيّاتٌ بارزة — وزراء ونوّاب في

الخدمة — حضروا المُناسبة. بالنسبة لِجَدّي، كان للحَدَث ثِقَلٌ سياسيٌّ بقَدْر ما له من بُعدٍ شخصيّ.

كانت أمّي تَستعيد بِعاطفةٍ جيّاشة لحظةَ دخولها على ذراع أبي، عابرةً مَمَرّاً شَرَفيّاً من الكشّافة الرافعين سيوفهم، تحت وَقعِ التصفيق الحارّ وانطلاقِ فِرقتَين موسيقيّتَين في آنٍ واحد — إحداهما بنغماتٍ شرقيّة والأخرى بنغماتٍ غربيّة — تَعزفان معاً في انسجامٍ آسر.

جُرأةٌ وعزيمة

غير أنّ ما طَبَع تلك المرحلة بأكثر من سواها هو حداثةُ أمّي وجُرأتها. رغم اعتراضات جدّتي لأبي الشديدة — وهي مُؤمنةٌ ورِعة، مُحافِظةٌ إلى أبعد حدّ — نَجَحَت أمّي في إقناع ديب بالسماح لبناته بِخَلع الحجاب. قرارٌ نادرٌ في تلك الحقبة. ورمزٌ قويٌّ للتحرُّر والتغيير.

غير أنّ هذا القرار كان يَقول الكثير أيضاً عن ديب نفسه. ذلك الرجل الذي كان يُغنّي «آمان دكتور» في الحنين إلى عالَمٍ عثمانيٍّ غابر، الذي كان يَسبّ لِيُخرِج زوجتَه التقيّة عن طَوْرها، الذي كان يُوزِّع بلا حساب على الغرباء — كان هذا الرجل قادراً أيضاً على أن يُصغي إلى كَنّةٍ شابّة في العشرين تُدافع عن قضيّة بناته. كان قد اختار حُبَّ أولاده على يقينيّات بيته.

كانت تلك، رُبّما، أَحدَثَ لَفتاته — لَفتةُ رجلٍ حُرّ، قادرٍ على الوقوف بين عالَمَين دون أن يُنكِر أيّاً منهما.

بين الإيمان والكُفر

لم يَكُن ديب رجلَ أنصاف الحلول — ولا في مكانٍ تَجلّى ذلك بأوضحَ ممّا تَجلّى في علاقته بالدين.

نوباتُ غضبه وكُفرُه كانت تَدفع جدّتي إلى اليأس. كانت تَقيّة، المسبحةُ في يدها، تُعاتبه:

« يا ديب... حاج تكَفِّر، حاج! »

بالنسبة لها، كان ذلك الكُفرُ رِجساً — أَشَدّ احتمالاً ممّا كانت تَتَحَمَّلُه من خياناته لها، وإن كانت معروفةً عند الجميع، لكنّها كانت تَستقبلها بمزيجٍ من التسليم واليأس الصامت. وكان ديب، كأنّه يَدفعها إلى أقصاها، يَزيد في الاندفاع، يُطلق بضعةَ ألفاظٍ ناريّة، يَرميها في الهواء كَشَرَر.

سِجالاتُهما، شِبهُ المسرحيّة، كانت تَتردَّد بين الجدران كنِزالِ عُقول — حيث تَتحوَّل المُواجَهة إلى فنّ. كانت تَقول مَزيجاً فريداً، يَكاد يَكون كيميائيّاً، من تَواطؤٍ لاذعٍ واختلافٍ عميق: هو، المُتفلِّتُ الحُرّ حتى حدّ الصَفاقة؛ وهي، امرأةٌ من قَرنٍ آخر، مُثقَّفة، تَتكلَّم التركيّةَ برشاقة، تقيّةٌ راسخةٌ في قناعاتها. هو، العائدُ من الجبهة على ظَهر فَرَس، فقيرٌ لكنّه شامخ؛ وهي، سيّدةُ الصمت والتقاليد. لم يَكُن

اتّحادُهما قِصّةَ حُبّ، بل عَهداً ضِمنيّاً بين مَملكتَين — تحالفٌ هَشّ، يَقف فيه الحُبّ على مسافةٍ مُحترِمة، يَتأرجح كَفانوسٍ بين الظِلّ والنار.

حكاياتُ ديب الآسرة

رغم أنّ ذاكرته كانت تَتعثَّر مع التقدُّم في السنّ، كان ديب يَروي بلا كلَل حكايةً عسكريّةً واحدة. خلال مناورة، أَسقَطَ نِسراً مَهيباً برَصاصةٍ واحدة من بندقيّته، دون أن يَتلقّى أمراً بذلك من قائده الألمانيّ. عُوتِبَ في البداية، ثم نال الثناء على بَراعته.

كنتُ أُصغي في صمت — رغم التَكرار العديد — مُتبادِلاً مع أبي نظراتٍ متواطئة. وَهَنَ ديب، ومع ذلك كان يَستمرّ، عبر رواياته، في تَمرير الرابطة الثمينة بين الأجيال.

أغنيةٌ من ماضٍ مَضى

في النُزهات العائليّة، كان ديب يُغنّي «آمان دكتور» — ذِكرى من سنوات الحرب، بالتركيّة:

Aman doktor canım kuzum doktor

Derdime bir çare

Çaresiz dertlere düştüm

Doktor bana bir çare

آمان دكتور، يا طبيبي العزيز،

ابحث لي عن دواءٍ لِوَجَعي.

وَقَعتُ في أوجاعٍ لا شفاءَ لها،

يا دكتور، أَعطني عِلاجاً.

كان صوتُه يَرتجف أحياناً، مُثقَلاً بالذكريات. ذلك اللحن — الحزين الجميل — كان يَمنح أَبهَجَ اللحظات نَبرةً من العُمق.

تحيّةٌ إلى جدّي

وأنا أَستعيد هذه الذكريات، أَشعر بامتنانٍ عميق.

جَدّي ديب، حُضورُك لا يَزال يَهتَزّ في حكاياتنا وفي صَمتنا. شُكراً لِغِنى إرثك، ولِصَفاء قِيَمك، ولِذلك الحُبّ الصامت الذي عَرَفتَ كيف تُوَرِّثه بكلّ هذا الوَقار.

لا تَزال تلك المِقَلِّمةُ معي.

⌘

الفصل الثاني

ما باح به قلبُها

بيروت، ١٩٩٥ ـــ وداعي لأمّي

الكلماتُ الأخيرة

كانت الساعة قد جاوزَت منتصفَ الليل حين وصلتُ إلى المستشفى. أختي كانت تَنتظرني في المطار، والإلحاحُ في صوتها: « ماما ناطرتك ـــ عجل. » كنتُ عائداً من فرنسا، حيث اضطُرِرتُ إلى تجديد بطاقة إقامتي ـــ التزامٌ يَستحيل تأجيلُه، رغم قَسوة اللحظة. خلال غيابي، كانت قد اتَّصَلَت بي بلا انقطاع. كنتُ أَعرف ما الذي يَعنيه ذلك.

في غرفتها، وَجَدتُها مُمَدَّدةً، نِصفُ وجهها مُختَفٍ تحت قِناع الأكسجين. جسدُها كان قد بَدا أكثر هَشاشةً خلال الأسابيع التي غِبتُ فيها. ومع ذلك ـــ حالما رَأَتني، تَغيَّر شيءٌ في وجهها. ابتسامةٌ بالكاد مَرسومة. حركةٌ تحت القِناع، كما لو كانت تَبحث عن الكلام.

جَلَستُ بِرِفقٍ قُربها. رَفَعتُ القِناعَ بِحَذَر وطَلَبتُ منها أن تُعيد ما قالت. بصوتٍ يَكاد لا يُسمَع، هَمَسَت:

« أنا عَمْ بَبُّوسَك. »

تلك الكلمات هَزَّتني في الأعماق. غمرتها بالقُبَل، مَلِيءً بامتنانٍ لا أَجِد له كَلِمات. تلك اللحظةُ الحميمة، المُعَلَّقة ـــ المَسروقةُ من حافّةِ كلّ شيء ـــ كانت تَخُصُّها وحدَها. حتى هناك، حتى في ذلك المكان، كانت لا تزال تُعطي.

في صباح اليوم التالي، نحوَ الساعة الثامنة، أَسلَمَتْ روحَها بسلام.

حين أَخَذتُ يدها للمرّة الأخيرة — باردةً رغم حَرّ الصيف — أَدرَكتُ كاملاً ثِقَلَ ما عِشتُه للتَّوّ. انهَمَرَت الدموعُ بلا قَيد. الحقيقةُ كانت تَصفعني بِكلّ ثِقَلها: أمّي قد عَبَرَت العَتَبةَ الأخيرة.
هذه هي قِصّةُ الطريق الذي قَطَعَتْه لِتَصِل إلى هناك — وقِصّةُ كلّ ما اختارَت أن تَفعَله بالوقت الذي تَبَقّى لها.

البَصَماتُ التي تَبقى

قبل المرض بكثير، كانت كلماتُها قد شَكَّلَتني بطُرُقٍ لم أَكُن قد بَدَأتُ أَفهَمُها إلا حديثاً.
كنّا في بداية تسعينيّات القرن العشرين. كنتُ قد سُرِّحتُ لتَوّي من عملي لِأسبابٍ اقتصاديّة — ضربةٌ موجِعة، خاصّةً وأنّ طموحاتي المهنيّة كانت تبدو لي بعيدة، رغم أنّ مشروع تَخَرُّجي، عَمَلاً من خَزَفِ ليموج، كان قد اقتناه « متحف أدريان دوبوشيه الوطنيّ في ليموج » (Musée national Adrien-Dubouché). عالَمُ التصميم كان قد تَجَمَّد في أعقاب النِزاعات الإقليميّة، وكنتُ أَشعر بذلك شخصيّاً، عميقاً.
ذاتَ يوم، وأنا أُشاركها شكوكي، نَظَرَت إليّ بتلك العاطفة الخاصّة التي كانت تَدَّخرها لِلَحَظاتٍ ذاتِ شأن، وقالت لي:
« يا ماما حبيبي، بهالحياة، أهمّ شي هو الأثر يلّي بِيتركو كلّ واحد منّا وراه. المصاري بتروح وبتجي — بس هالأشيا يلّي بتبقى من بعد ما نروح، أهمّ بكتير. »
بساطةٌ خَلّابة. ومع ذلك، صارَت هذه الكلمات مَناراً لي في أَحلَك ساعاتي. كانت تُذَكِّرني بأنّ الجَوهر لا يَكمن في المَكاسب المادّيّة، بل في البَصمة التي نَتركها على الآخرين — عبر عملنا، وعبر قِيَمنا، وعبر إبداعنا. وهذه الرؤية بالذات هي التي دَفَعَتني، بعد سنواتٍ طويلة، نحو مشروعٍ قادرٍ على عبور الأجيال. لكن هذه القصّة، سأَرويها في حينها.

الإفصاحُ عن المرض

الخبرُ، حين وَقَع، جاء كَجِدارٍ مَنيع.

سرطانٌ في مرحلتِه النهائيّة. انتَشَر في جسدها كلّه انطلاقاً من الرئتين — وهي التي لم تُدَخِّن سيجارةً واحدة طوال حياتها. كانت الصدمة كاملة. غادَرتُ باريس فوراً لِأَلحَق بها، مُحَطَّماً، عاجزاً عن تَصديق ما أُعلِنَ لي للتَّوّ.
حين وصلتُ إلى بيروت، بعد بضعةِ أيّامٍ من أوّلِ أيّار الذي سَقَط فيه الخبر، كانت تَبتسم. مُشرقة. على سَجِيَّتِها، كَعَهدِها دائماً. مُستحيلٌ أن نَتَخَيَّل، ولو لِلَحظة، أنّها على شَفير الموت. كنتُ أَحمل لها هدايا من كلّ نَوع، وكأنّها وداع. سَرَّها بشكلٍ خاصّ صَندَلٌ من « مِنيلي » (Minelli) — أَثنى عليه طبيبُها نفسُه، إذ تَعَرَّفَ على الطِّراز ذاتِه الذي كانت زوجتُه قد ألحَّت عليه أن يَشتريَه خلال رحلةٍ إلى إيطاليا. قالت أمّي، بِفَخر:
« هيدا جابلي ياه إبني بباريس. »

آخِرُ لحظاتِ الكرامة

مع تَقَدُّم المرض وتَدَهوُر حالتها، باتَت العلامات الجسديّة لِمَعرَكتها لا تَقبل الإنكار. كان العلاجُ الكيميائيّ قد جَعَلَها تَفقد كلَّ شعرها — مِحنةٌ كان كثيرون سيَسعَون إلى إخفائها. لكن ليس هي. وفاءً لِكِبريائها وكرامتها، كانت ترفض رَفضاً قاطعاً ارتداءَ غِطاءِ رأس، مُعلِنةً بثَبات:
« ما بَدّي شي عَ راسي. خَلّي الجيران يشوفوني. ما حَدا عِندو خيمة زَرقا فوق راسو. »
من حولها، اختارَت العائلةُ الصمت. كلّهم كانوا يَكذبون، بأفضل النَوايا:
« حين تَشفين، سنُسافر، سنَخرج معاً... »
بالنسبة لي، كانت هذه المُسرَحيّة لا تُحتَمَل. مهما كانت الحقيقةُ مُؤلِمة، كان من حَقّها أن تَعرف — أن تَختار كيف تُريد أن تَعيش لحظاتِها الأخيرة. كنتُ الوحيدَ العاجزَ عن النَظَر في عينَيها وأنا أَتَظاهر.

الوصيّةُ الأخيرة

ذاتَ ليلة، وأنا أَستلقي في السرير المُجاور لها، في غرفتها الخاصّة في المستشفى، استَيقَظَت نحوَ الساعة الثالثة فجراً، وابتسامةٌ مُشرِقة تُضيء وجهَها، مُستعِدّةً لِفَتح حِوار. إذ رَأَيتُ أنّ ذِهنَها قد بَقِيَ مُتَّقِداً رغم هَشاشةِ جسدها، وَجَّهتُ حديثَنا بِرِفقٍ نحو الحياة، والموت، والمصير. شيئاً فشيئاً، أَدرَكَتْ.
تَجَمَّدَت ابتسامتُها. اغتَمَّت نظرتُها. دَمعةٌ واحدة سالَت على خَدّها. بعد صمتٍ طويل، أَمَرَتني بِسُلطةٍ بأن أُحضِر ما أَكتب به.
بِهدوءٍ يَشُعُّ مَهابة، أَملَت وصيَّتَها بينما كنتُ أُسارع إلى تَدوين كلّ شيء في مُفكِّرة « فيلوفاكس » (Filofax)، أُجاهد لِأُساير إيقاعَها. كانت قد قَرَّرَت أن تَجعَلَني المُنَفِّذ — كاسرةً بذلك التقليدَ الذي كان يَنسب هذه المسؤوليّة عادةً للابن الأكبر. بوصفي الأصغر، أَعزَبَ وبلا أولاد، كنتُ في عينَيها الأكثرَ قُدرةً على إنجاز هذه المُهِمَّة الدقيقة.
في صباح اليوم التالي، الساعةَ الثامنة والنصف بالضبط — كما طَلَبَت منّي — تَوَجَّهتُ إلى الكاتب العَدل لِتَوثيق وصيّتها.

العِبءُ العائليّ

بَعدَ قليل، وَصَلَت أُختاي وأَخي. أَخي، الجَريحُ في كِبريائه، عَبَّر عن غضبه لأنّه أُقصِيَ. بِنُعومةٍ لا حدود لها، شَرَحَت له بِهدوء أنّه يَعيش في جزيرة موريشيوس مع عائلته، وأنّ له طِفلَين وثالثاً في الطريق، وأنّ حضورَه الجسديَّ في مِثل هذا الشأن لم يَكُن مُمكِناً. في السنوات التي تَلَت، اضطُررتُ إلى السفر مرَّتَين في السنة، طوالَ ثلاث سنواتٍ مُتتالية، لِأُثبت إقامتي المُتواصلة في الشَّقّة العائليّة — إجراءٌ جَوهريّ لِحِفظ حَقّ أُختي في الإقامة فيها. وإن كانت هذه المسؤوليّة ذاتَ مَعنى، فقد تَبَيَّن أيضاً أنّها مُرهِقةٌ في العُمق. التنقُّلات المُتواصلة والوقتُ المَكرَّسُ لِلإجراءات أَبعَدَتني طويلاً عن مسيرتي المهنيّة، حتى زَواج أُختي من جديد.
تلك الحقبة وَسَمَها إنهاكٌ عميق — مَعنويٌّ وماليّ. الجهودُ المُتواصلة قادَتني في النهاية إلى إفلاسٍ شخصيّ، والفَراغُ الذي

تَرَكَتْه خسارةُ أمّي أَغرَقَ حياتي في كآبةٍ لا سَبرَ لها. أنا الذي كنتُ في ما مضى أَنبَهِر بالأوبرا والمتاحف والأسفار، اكتَشَفتُ فجأةً أنّ كلَّ شَغَفي قد فَقَد بَريقَه. استَقَرَّ الاكتئاب، يَطلب جُرعاتٍ قُصوى من « بروزاك » (Prozac) و« لِكسوميل » (Lexomil) للحفاظ على ما يُشبه التوازن.

تَطهيرُ الأرواح

لكن في أسابيعها الأخيرة، أَقدَمَت أمّي على شيءٍ استثنائيّ. كانت تُريد أن تَرحَل خفيفةَ القلب — بلا أَحقاد، بلا أَسرار.
حدَّثَتني عن الإسوارة الذَهَبيّة المَجدولة، التي أَهداها إيّاها أبوها فَوْزي لِنَجاحها في البَكالوريا، والتي صُودِرَت منها ظُلماً في طُفولتها. إعادتُها إلى صاحبتها الشرعيّة كانت قد صارَت فعلَ إنصاف — مُصالَحةً صامتةً بين الأمّ والابنة.
ذَكَرَت زواجها المُدَبَّر. الأحلامَ المُحَطَّمة، حُبَّ الشباب الذي ضَحَّت به، التنازُلاتِ التي قَبِلَتها صامتةً. لكنّها ذَكَرَت أيضاً قُدرتها على المغفرة — على الحُبّ رغم الجِراح. كانت بَوحاً ذا جَمالٍ مُؤثِّر، مُضيئاً بإنسانيّة. لم تَكُن تُفرغ ما فيها ضَعفاً. كانت تُكمل — دون أن تَترك شيئاً ناقصاً، شيئاً غيرَ مُعلَن.

نورٌ في المِحنة

أيّامُها الأخيرة، كما أَرادَتها، كانت مَغمورةً بالموسيقى والصلاة والنور.
ألحانُ فيروز والأغاني الأندلسيّة التي كانت تُحِبُّها تَطفو في البيت كآخِر نَفَسٍ لِروح. جارانِ — تلميذةٌ سابقة وأخوها، عازفُ العُود — جاءا لِيُغَنّيا ويَعزفا لها، مُتَأثِّرَين بِنُبلها الهادئ، يُضيفان قليلاً من الدفء إلى ساعات عُبورها.
في تلك الأيّام بالذات بَدَأَت تُناديني بأكثر إلحاح. والتزامُ تَجديد بطاقة إقامتي هو ما أَعادَني إلى فرنسا — لِتلك المرّة الأخيرة كلَّها — قبلَ العودة عند منتصف الليل، وغرفةِ المستشفى، وقِناعِ الأكسجين، وتلك الكلماتِ الأخيرة التي كانت قد ادَّخَرَتها لي.

تحيّةٌ جَماعيّة

جَنازتُها هَزَّت الحَيَّ كلَّه.
أغلقوا التجار مَتاجِرهم، مع الجيرانُ ركبوا سيّاراتهم لِيُتابعوا المَوكب. لم يَطلب منهم أحدٌ شيئاً. جاؤوا، ببساطة — لأنّ تلك كانت طريقتَهم في قول شُكراً. شُكراً للأطفال الذين ساعَدَتْهم في الالتحاق بالمدارس. للإجراءات التي يَسَّرَتها. لِإصغائها، وكرامتها، وحَنانها الصامت المَزروع من حولها.
أَدّى أهلُ الحَيّ تَحيّةً أخيرةً لِلسِّتّ نازِك — كما كان الجميع يُنادونها.
حتى في غيابها، كانت أمّي لا تَزال تُشِعّ.

الفصل الثالث

جُرحُ الأب

لبنان–فرنسا–هولندا ـــ الجرح والمغفرة

كلامٌ على الشُّرفة

بعد ساعاتٍ قليلةٍ من دفن أمي ـــ وجسدُها ملفوفٌ بكفنٍ بسيطٍ على السُّنّة ـــ وجدنا أنفسَنا، أنا وأبي، وحدَنا على شُرفة البيت. كان النهارُ قد بدأ يفقدُ ضوءَه. ظلَّ صامتًا طويلًا. ثم قال، بصوتٍ مكسور:

« غريبة هالحياة... الطيّبين بيموتوا بكير، والّي ما بيستاهلوا بيضلّوا. »
لم أقُل شيئًا.

كنتُ أفكِّرُ بالشيءِ ذاته تمامًا.

لكن سماعَه يقولُها ـــ بتلك النظرةِ المُثقَلَةِ بالذنب، بذلك الثِّقَلِ الخاصِّ برجلٍ يعتقدُ أنه كان الأَولى بالرحيلِ مكانَها ـــ جعل شيئًا في داخلي يتصلَّب. حملتُ تلك العبارةَ سنواتٍ طويلة، كحجرٍ لا

أستطيعُ أن أضعَه. احتجتُ زمنًا طويلًا لأفهمَ ما كلَّفَه قولُها. وزمنًا أطول لأفهمَ الرجلَ الذي قالها.

هذه قصةُ ذلك الرجل. الأبُ الذي فقدتُه قبل أن يموت — والذي لم أستردَّه إلا بعد رحيله.

ليالي العواصف

لا أنسى ليالي العواصف في طفولتي. كان دويُّ الرعدِ ولمعانُ البرقِ يملآنِ الغرفةَ رهبةً في كلِّ مرة. لكنَّ أبي، بحنانٍ لا حدَّ له، يدعوني لأنامَ إلى جواره وجوارِ أمي. كان سريرُهما العريضُ ملجئي. يفرشُ جانبَه برداءِ بيتٍ من الصوف ليزيدَ دفئي، ويطويني بذراعَيه المُطمئنَّتَين، ويحرصُ أن يخبأ رأسي جيّدًا تحت اللحاف كي تَخِفَّ قرقعةُ السماء.

تلك الليالي — وقد غمرتْها حمايتُه وأسكنَها الأمانُ — تذكِّرُني اليومَ بالمحبَّةِ غيرِ المشروطةِ التي كان يجسِّدُها يومذاك. قبل أن يُعكِّرَ الإدمانُ بريقَه ودورَه كحامٍ.

أولى الخفقات: القبلة البريئة

في الرابعةَ عشرةَ من عمري، سهَّل أبي — بلطفِه الصامت — لقاءً مع ماجدة، العاملةِ الشابَّةِ في بيتِ عمتي. كنّا في العمرِ نفسِه، وبيننا مودَّةٌ متبادلة. ذاتَ عصرٍ، بقينا وحدَنا، فتبادلنا قبلةً بسيطةً، عفيفةً، محترمةً — كانت الأولى في حياتي، لا أكثر. انطبع ذلك

المشهدُ في داخلي كعبورٍ إلى مرحلةٍ جديدة، وشعرتُ في عينَي أبي بفخرٍ هادئٍ، وهو يرافقُ خطواتي.

دعابتُه الحانية وعثراتُ المطبخ

ثم جاءت أدريانا، أوَّلُ صديقةٍ لي. وعلى شقاوته المعهودة، كان أبي يحبُّ أن يهمسَ لي بِحِيَلٍ طريفة: « إسألها — وكأنّك ما بتعرف — إذا كانت إمّها أختها الكبيرة. » لم أتجرَّأ حينها؛ لكنني، بعد سنواتٍ، في فرنسا، اكتشفتُ كم كانت تلك الدعابةُ فعَّالةً على نحوٍ غيرِ متوقَّع.

ظلَّ حسُّه الفُكاهيُّ حاضرًا. ما زلتُ أرى قهقهاتِه مع أخي على « نهضتي الصباحيَّة تحت الملاءة »، موضوعًا بريئًا لتنكيتِهما العائليّ. شيئًا فشيئًا، أخذتْ تلك الخفَّةُ تُفسحُ المكانَ لعثراتٍ أخرى — خصوصًا في المطبخ. تحوَّلت « تبُّولتُه » من دونِ برغل إلى أسطورةٍ عائلية: كان يستبدلُها — ببساطة — بسلطةٍ مفرومةٍ تقريبيَّة، سمَّيناها بمودَّةٍ « سلاطة بَابَا ». كنّا نضحكُ من دونِ سوءِ نيَّة، غيرَ واعينَ بعدُ أنَّ تكرارَ تلك الهفوات كان يفضحُ تمدُّدَ قبضةِ الكحول.

كرمٌ بلا حدود

على غرارِ أبيه، كان أبي يجسّدُ طِيبةً فيَّاضة — تبلغُ أحيانًا حدَّ التبذير.

في مساءٍ لا أنساه، كنتُ واقفًا إلى جوارِ أبي على شُرفةِ منزلنا. وبالقربِ منه كان كأسُ ويسكي بلونِ العنبرِ يلمعُ على الطاولةِ الصغيرة، وسجارتُه المُشتعلةُ بين أصابعِه كعادتِه في أمسياتِه الهادئة. لمَحَ بائعًا جوَّالًا يدفعُ عربتَه المُثقلة، وقد مالتِ الشمسُ إلى الغروب، فناداه من أعلى الشُّرفة، وصافحه بعينَيه قبل يدَيه، ثم اشترى منه كلَّ ما تبقَّى من فاكهةٍ وخضارٍ دفعةً واحدة، كأنّه ينتشلُ نهارَه من الخسارة. وما إن صعد البائعُ أدراجَ البناية حتى تحوَّلت شُرفتُنا إلى ورشةِ فرحٍ صغيرة؛ انحنى أبي على الدرابزين ونادى بنبرةٍ دافئة: « يا إمّ عبد... يا جارتي يا إمّ يوسف... تفضّلوا، خدوا حصّتكُن »، فبدأ يُقسِّمُ السِّلالَ بنفسِه، ويُناوِلُ كلَّ واحدةٍ ما يتيسَّر، وهو يبتسمُ كأنّه يُقيمُ عُرسًا للقلوب.

من الطابقِ الفوقاني، أطلَّت جدَّتي لأمي — التي كانت تطبخُ للجميع — متعجِّبة:

« ليش اشتريت كل هالأَدّ؟ شو منعمل بكل هالفاكهة والخضرة؟ بعد كم يوم بتفسد. »

فابتسمَ أبي ابتسامةً تُذيبُ العتب، وقال بهدوءٍ يلمعُ فيه طِيبُه:

« شفت هالبيّاع المسكين، آخر العصر، عربايتو بعدها مليانة... ما كان بايع شي. حبّيت إجبر خاطره. عندو ولاد لازم ياكلوا. »

ثم عاد يُوزّعُ ما بقي من الخيرات حتى خفَّ الحملُ عن العربة، وخفَّ عن قلبه أيضًا.

لا تَبَجُّحَ. لا انتظارَ لشيء. مجرَّدُ اندفاعةٍ فطريَّةٍ صافيةٍ، تكادُ تكونُ ردَّ فعل — نَسمةَ طِيبةٍ لا تطلبُ شيئًا في المقابل.

في المطعم، كان يطلبُ كلَّ « المازات » (mezze) التي في اللائحة — أحيانًا أكثرَ من ستِّينَ صحنًا — فتتحوَّلُ المائدةُ إلى مسرحِ احتفال. خلفَ هذا العرضِ من الألوانِ والروائحِ ساعاتُ تحضيرٍ صامتة: تقطيعٌ وطهوٌ وتتبيل... كلُّ حركةٍ دقيقةٍ تحكي ذاكرة. تأتي الأطباقُ تباعًا، كلُّ واحدٍ منها فريدٌ، كقطعِ فسيفساءَ مطبخيَّةٍ لا تتركُ للصدفةِ مكانًا. كان كلُّ شيءٍ تناغمًا، وتقليدًا حيًّا، وشغفًا ينتقلُ عبرَ الزمن.

النُّدُلُ — رغمَ عنائهم في الذهابِ والإياب — كانوا يحيُّونه بتلك التحيَّةِ التي تُحفَظُ لأصحابِ القلوبِ الكبيرة، شِبهَ تحيَّةٍ لأمير. وكان هو، بحياءٍ، يضعُ في أيديهم رُزَمًا من الأوراقِ النقديَّةِ عربونَ امتنان.

ومهما بدتْ تلك الإيماءاتُ مُفرطة، لم تكن إلَّا تعبيرًا عن قلبٍ واسعٍ وفرحٍ صادقٍ بالعطاء. كان العطاءُ عنده طبيعيًّا كالتنفُّس: نَفَسَ محبَّةٍ هادئ، لا يطلبُ شكرًا ولا مديحًا.

اليومُ الذي تغيَّر فيه كلُّ شيء

بعد رحيلِ أمي، بدا الرجلُ الذي كبرتُ معه يذوبُ كلَّه.

تقلُّباتُ مزاجِه — المرتبطةُ بعِلَّةٍ خفيَّةٍ لم نكن نفهمُها — كانت قد لطَّختْ يومياتِنا بتوتُّرٍ دائمٍ منذ سنواتٍ طويلة. ظلَّت أمي حاجزًا صبورًا حنونًا، تُحاولُ تهدئةَ الأجواءِ المكهرَبَةِ التي تنفجرُ بلا إنذار. كانت مشاجراتُهما عنيفةً في أحيانٍ كثيرة، تنبثقُ على غيرِ ما يُتوقَّع. لكنَّ العاصفةَ إذا ما هدأت، اعتذر أبي — وربَّما بكى كطفلٍ، عاجزًا عن فَهْمِ إفراطِه. وبعد طلاقِهما، استعاد بيتُنا هدوءه، واستطعنا أخيرًا أن نتنفَّس.

وازدادَ غيظي حين عرفنا أنَّ أمي كانت تعاني سرطانًا منتشرًا؛ أقنعتُ نفسي أنَّ نوباتِه المتكرّرة قد أسهمتْ في إنهاكها — أنَّها قضتْ سنواتٍ تمتصُّ توتُّرًا كان يُدمّرُها ببطء. حملتُ تلك القناعةَ بمرارة، وزمنًا طويلًا، لم أُعِدِ النظرَ فيها.

إدراكٌ متأخِّر

بعد رحيله فقط، لاح لي وجهٌ آخرُ للحقيقة.

صديقٌ اسمُه جيروم (Jérôme)، يعاني من اضطراباتِه الخاصَّة، فتَح عينَيّ. رافقتُه إلى طبيبةٍ نفسيَّة، فسمعتُ لأوَّلِ مرَّةٍ عبارةَ « اضطراب الشخصية الحدِّية » (Trouble de la personnalité borderline): حساسيَّةٌ مُفرطة، اندفاعيَّة، وتقلُّباتٌ شديدةٌ في

المزاج، وعجزٌ عن تنظيمِ حالاتٍ شعوريَّةٍ يعبرُها سواهُ دون أن ينتبهَ إليها.

كلُّ شيءٍ كان يوافقُ الصورة.

لم يُشَخَّصْ أبي يومًا. لم يُسَمِّ أحدٌ يومًا معاناتَه. لكنَّ هذا الكشفَ ألقى ضوءًا جديدًا تمامًا على كلِّ ما حسبتُ أنّي فهمتُه. أخذتْ تجاوزاتُه فجأةً معنًى آخر — لم تَعُد ضعفًا، ولم تَعُد أنانية، بل عِلَّةً خفيَّةً بقيتْ بلا علاجٍ مدى الحياة.

كنتُ قد حكمتُ على رجلٍ بسببِ جُرحٍ كان يجهلُ وجودَه.

سلامٌ مُستعاد

اليومَ، لا غضبَ في قلبي. لا شيءَ سوى الرحمة.

أغفرُ له عثراتِه، كما أغفرُ لأحكامي عليه. وفي تأمُّلاتي، أتخيَّلُه يقولُ لي:

« أنا فخور فيك يا بابا. داويت جروح ما عرفت إشفيها. وعم تكمّل طريق أنا ضعت فيه. »

تلك الكلماتُ المُتخيَّلَةُ تُهَدِّئ. أبي، رغمَ كلِّ شيء، يظلُّ ركنًا مؤسِّسًا. رجلٌ مُركَّب. إنسان. ومن خلالِه فهمتُ:

أنَّ الحبَّ، وإن كان ناقصًا، وإن كان مجروحًا، يظلُّ عطيَّةً ثمينة. أن نُحِبَّ بلا شرط. أن نتقبَّلَ دون أن نَسعى إلى التغيير. وأنَّ الغفرانَ، أحيانًا، يَجبُرُ ما لا يداويهِ الزمن.

حُلُمُ العودة

ثمَّةَ أحلامٌ لا تتلاشى. لا تنطفئُ عند الفجرِ ولا في الأيامِ التي تليه. تسكنُنا، ترافقُنا، تُغيّرُنا.

في ذلك الحُلم، كان أبي هناك. جالسًا على كرسيّ مقهًى — طراز « ثونيه » (bistrot Thonet)، شِبهَ كراسي جدّي ديب — كأنَّه قادمٌ من زمنٍ آخر، بقميصه الأبيض الذي يرتديه يوم الأحد، والذي كان مجعداً قليلاً كعادته. يداهُ تستقرَّان هادئتَين على ركبتَيه. لا يتكلَّم. كان ينتظرني.

لا كلمةَ ولا إشارة. سوى تلك السكينةِ تحفُّ به — تكادُ تكونُ من عالَمٍ آخر. وجهُه يغتسلُ بضوءٍ رقيق، صفاءٍ مألوفٍ لم ألمحْه منذ صِغري. لم يكنْ قد رآني بعدُ — أو تظاهر بذلك. لعلَّه أراد أن يمنحَني فسحةَ الاعتراف.

ولمَّا التقتْ عيونُنا أخيرًا، انشقَّ الزمن. اغرورقتْ عيناه. وُلدتْ ابتسامة — هشَّةً، حانيةً، مدهوشة. ابتسامةُ أبٍ وجدَ ابنَه الضائع. ابتسامةُ حبٍّ بلا كلام، وجُرحٍ التأمَ أخيرًا.

لم أفكِّر.

رميتُ نفسي بين ذراعَيه بِعَجَلَةِ القلب. احتضنتُه بكلِّ قوَّتي، بكلتا يدَيّ، كأنّي أستدركُ الأعوامَ الهاربة. أسندتُ رأسي في نُقرةِ عنقِه — هناك حيث كنتُ، طفلًا، أَلوذُ كلَّما قصفَ الرعد، حيث كانت رائحتُه تُطمئنُني أكثرَ من ألفِ كلمة. وهناك، في الصمت، شَمَمتُها

من جديد: « بُورْ أَنْ أُومْ دُه كَارُون » (Pour Un Homme de Caron)... لافندر، وروزماري، وبرغموت، وحامض. لم يكنْ عِطرًا فحسب. كان ذاكرةً سليمة. أثرَ حبٍّ مُعلَّقًا في الأبديَّة.

بكيتُ. طويلًا. بلا خجل. بلا كفٍّ.

وهو لا يقولُ شيئًا. لكنَّه كان حاضرًا كلَّه. كان صمتُه يقولُ كلَّ شيء: عفوًا، حنانًا، فرحًا. كان يقول: « أنتَ هنا. وأنا هنا. »

أعرفُ أنَّ ذلك الحُلمَ لم يكنْ محضَ آليَّةٍ ذهنيَّةٍ عابرة. كان موعدًا. عبورًا من روحٍ إلى روح. عهدًا خفيًّا تبادلناه في الظلمة.

ومنذ ذلك الحين، تغيَّر شيءٌ ما. حلَّ الحضورُ مكانَ الفقد — حضورًا صامتًا، هادئًا، عميقًا.

وحين أفكِّرُ به اليومَ، لم يَعُد الفراغُ هو ما يقبضُ صدري.

بل نورُه الخافتُ الذي يصحبُني.

حبُّه — غيرُ مرئيٍّ، لكنَّه حيّ.

دائمًا.

⌘

الفصل الرابع

ليلة الروح المظلمة

فرنسا–هولندا، ١٩٩٥–٢٠٠٨ ـــ الليلة المظلمة

في الظلام

في عام ١٩٩٥، وبَعدَ وَفاةِ أمّي بقليل، شَرَعتُ أَلعَنُ اللهَ.

لا أَخجَلُ من كتابةِ ذلك. كان أَصدَقَ ما فَعَلتُهُ في تلك السنوات.

كنتُ قد نَشَأتُ في عائلةٍ يُحتَرَمُ فيها اللهُ ولكن لا يُفرَض ـــ حُضورٌ هادئٌ على هامشِ حياتنا، لا يُسأَلُ ولا يُمتَحَن. لكن في أعقابِ موتها، صار ذلك الحضورُ الهادئ شيئاً ينبغي أن أُواجِهَهُ مباشرة. وما وَجَدتُهُ حين فَعَلتُ، كان غَضَباً. غَضَباً صافياً، ضارياً. لِمَ كلُّ هذا الألم؟ لِمَ يُسمَحُ لامرأةٍ بكلِّ هذا الحُبِّ أن تَرحَلَ في آلامٍ مُبَرِّحة، في اللحظةِ التي بَلَغَت فيها سنَّ التقاعد، دون أن تَنالَ ولو فُرصةً واحدةً لتَتَمَتَّعَ به؟

تلك الأسئلة، المُثقَلةُ باليأس، دَفَعَتني إلى رَفضِ كلِّ فكرةٍ عن الألوهية ـــ وأَبعَدَ من ذلك: كلِّ شكلٍ من أشكالِ الروحانية. إن كان الكونُ يَعمَلُ هكذا، فأنا لا أُريدُهُ.

طَوالَ ما يُقاربُ ثلاثةَ عشرَ عاماً، تِهتُ في تلك الليلةِ المُظلمة.

ما لم أَكُن أَعرفُهُ حينها — ما لم يَكُن في وُسعي أن أَعرِفَه — هو أنَّ الظلامَ لم يَكُن نهاية، بل كان مَمَرّاً.

تَيهٌ في العَتمة الداخلية

لم تَكُن تلك السنواتُ الثلاثَ عشرةَ دراميةً في ظاهرها. لا انكسارٌ مَشهديّ، ولا انهيارٌ يُشيرُ إليه أحدٌ بالإصبع. مُجَرَّدُ تآكُلٍ بطيءٍ، رماديّ — تآكُلِ الإيمان، والاتجاه، والقُدرةِ على الفرح. كنتُ قد فَقَدتُ أمّي. وفَقَدتُ إيماني بمعنى. وفي مكانٍ ما على الطريق، دون أن أَعرفَ متى بالضبط، فَقَدتُ كذلك ثقتي بنفسي.
ثم، في عام ٢٠٠٨، انقَضَّت الأزمةُ الاقتصاديةُ العالمية، ومعها فَقَدتُ عَملي.
لم يَبقَ لي شيء. لا عمل، ولا مَرجِع، ولا سببٌ ظاهرٌ للاستمرار. ثلاثَ عشرةَ سنةً من الحِداد، ومن أسئلةٍ بلا أجوبة، ومن غَضَبٍ خَفِيٍّ على إلهٍ لم أكُن أُؤمنُ به — كلُّ ذلك كان يَلتَقي عند هذه النُّقطَةِ بالذات. فَقَدتُ كلَّ رَغبةٍ في الحياة.
وفي تلك الهاوية، حَدَثَ شيءٌ ما.

الحُضورات

لا أَقدِرُ على تحديدِ متى بَدَأَ ذلك بالضبط.
لكنّي، في لحظةٍ ما، وَسطَ تلك العَتمة، شَعَرتُ أنّي لم أَعُد وحدي.
لا صوت. لا رؤيا. حُضور — أو بالأحرى، حُضورات. عِدّةُ حُضوراتٍ خَيِّرة، ذاتُ قُوَّةٍ ساحقة، كانت تَنظُرُ إليّ. تَنظُرُ إليَّ وأنا أبكي. تَنظُرُ إليَّ وأنا أَرفُضُ أن أَموت، وأَنا في الوقتِ نفسِه أَنجَرِفُ نَحوَ الموتِ باليأس. لم تَكُن تُنقِذُني. لم تَكُن تُكلِّمُني. كانت موجودةً فحسب، شُهوداً صامتةً، وحُضورُها يُحيطُني بحَنانٍ لم أكُن أعرفُ كيف أَستَقبِلُه.
لم أَعرف حينها كم كانت. عَرَفتُ عَدَدَها لاحقاً، حين تَدَرَّبتُ على استخدامِ « البندول » (Pendule énergétique): سبعةُ حُضورات، أَغلَبُها ذُكوريّة، لم يَتَغَيَّر عَدَدُها كثيراً عبر السنوات.
لكن في عام ٢٠٠٨، في قَلبِ تلك الليلة، لم أكُن أَستَطيعُ إلا أن

أَشعُرَ بتَعَدُّدِها، وانسجامِها، وانتباهها. وأنا أعتقدُ اليومَ أنَّ تلك النظرةَ بلا حُكم هي التي أَبقَتني على قَيدِ الحياة.
ومع ذلك — حتى في قاعِ تلك الهاوية — كان شيءٌ ما لا يَزالُ يَتَحَرَّك. تَزامُناتٌ مُحَيِّرةٌ بَدَأَت تَتَكاثَر، كأنَّ الكونَ يُحاوِلُ التواصُلَ معي عبر القناةِ الوحيدةِ التي تَركتُها مفتوحة: الفُضول. شيئاً فشيئاً، فَهِمتُ أنّ الروحانيةَ والدِّينَ شيئان مُختَلفان تمامَ الاختلاف. وأنا — المُلحِدُ من حيثُ المبدأ، السائرُ في الخَفاءِ بحثاً عن معنى — وَجَدتُ نفسي أَدخُلُ في حوارٍ مُتَرَدِّدٍ مع قُوَّةٍ مَجهولة. طاقةٍ بلا اسم. كانت أَجوبتُها، حين تأتي، تَصِلُني بطُرُقٍ لم أكُن أَستَطيعُ تَفسيرَها.

علاماتُ الغموض

كانت الظواهرُ طَفيفةً في البداية. تَكادُ تُنكَر.
ذاتَ يوم، اشتَعَلَت طابعَتي — مَفصولةً ومُطفأة — فجأةً، من تلقاءِ نفسها. بَقيتُ هناك أُحَدِّقُ فيها لحظةً طويلة. ثم، شِبهَ مُكرَه، اختَرتُ أن أرى في ذلك دعوة: افتَح ذِهنَك.
ومرّةً أخرى، أَثناءَ التأمُّل، مَلأ غُرفَتي عِطرٌ آسر — مألوفٌ لكن يَستَحيلُ تَحديدُه. بَحَثتُ عن مصدره. كانت كلُّ النوافذِ مُغلَقة. كلُّ الأبوابِ مُوصَدة. ذلك العِطر، الذي يَكادُ يكون فوقَ الطبيعي، بدا أنّه يُعلِنُ عن حُضورٍ أكثرَ مما يَكشِفُ عن أصل.
ثم كان الخَيط.
كنتُ أَصنَعُ عِقداً بحَجَرٍ شِبهِ كريم. زَلَّ خَيطٌ من القُطن من بين يَدَيَّ وسَقَطَ على الأرض. لمّا انحَنَيتُ لأَلتَقِطَه، كان قد اختفى. بَحَثتُ دقائقَ طويلة — بمَنهَجيّة، ثم بيأس — لكنّي انتَهَيتُ إلى الاستسلام. وحينَ نَهَضتُ لأُشعِلَ « مصباحَ الهالوجين » (lampe halogène)، وَجَدتُه يَستَقِرُّ في مكانٍ بعيدٍ عمّا كان مَنطقياً أن يَسقُطَ فيه.
تلك الحوادثُ الصغيرة، الهادئةُ غيرَ المُستَعجِلة، كانت تَتَحَدّى كلَّ تفسيرٍ عقلاني. لعلَّ الفيزياءَ الكَمّيّة ستُقَدِّمُ لها يوماً تفسيراً. ما أَعرفُه هو أنَّ كلَّ واحدةٍ منها كانت تَهمِسُ بالشيءِ نفسه: الواقعُ الذي تراه ليس الواقعَ الوحيدَ الموجود.

اللابرادوريت

في تلك الفترة أيضاً — قُبَيلَ التَّسريحِ من العَمَل بقليل — جاءَت تَفصيلةٌ تَبدو تافِهةً لِتُغَيِّرَ مَسارَ حياتي.
كنتُ أُعاني من آلامٍ في أَسفَلِ الظَّهر منذ أسابيع. ثلاثةُ مُعالجين فيزيائيّين زُرتُهم في ثلاثة أسابيع، ولم يَنجَح أيٌّ منهم في فَكِّ العُقدة. كان الألمُ يَستَقِرُّ، لا يُلين.
ومن مَحضِ يأسٍ، عَثَرتُ على موقعٍ على الإنترنت بَدا لي للوَهلةِ الأولى عَبَثياً تماماً، على معلوماتٍ عن « اللابرادوريت » (Labradorite) — حَجَرٍ قيلَ إنّه قادرٌ على تَسكينِ آلامِ المَفاصِل. لم أَكُن أُؤمنُ بذلك. لكن لم يَعُد لَدَيَّ ما أَخسَرُه.
وَجَدتُ، قُربَ مَنزلي، مَتجَراً للأحجارِ الكريمة والبَلّوريات تُديرُه امرأةٌ اسمُها إيرين (Irène). أَكَّدَت لي البائعةُ، لِدَهشَتي الكبيرة، قُدرةَ « اللابرادوريت » — لا في تَليينِ المَفاصلِ فحسب، بل في خصائصِه الواقية أيضاً. اشتَرَيتُ حَصاةً، وأنا مُتشكِّك، ووَضَعتُها على ظَهري قبل أن آوي إلى الفِراش.
في تلك الليلة، حين قُمتُ لأَذهَبَ إلى الحَمّام، سَمِعتُ بوُضوحٍ فَقَراتي تَطقطِق. دون أيِّ أَلَم. الانسدادُ الذي عَجَزَ ثلاثةُ مُعالجين عن فَكِّه طَوالَ ثلاثةِ أسابيع، تَحَرَّر في ليلةٍ واحدة، بفِعلِ حَجَرٍ لم أَكُن أَعرفُ عنه شيئاً قبل أيامٍ قليلة.
كان ذلك البابَ الأول. وستَأتي أبوابٌ كثيرةٌ أخرى.

أسئلةٌ تأبى الإجابة

كانت كلُّ مرحلةٍ من تلك الرحلةِ الداخلية مَسكونةً بالأسئلةِ نَفسِها التي لا تَلين:
لِمَ يَحدُثُ هذا لي؟ ما مَعنى كلِّ هذا؟ هل ما زِلتُ قادراً على المُتابعة؟
طويلاً، بَدَت الأجوبةُ غائبة. ثم، تَدريجياً، تَحَرَّكَ شيءٌ ما — لا اِنبِلاجاً خارجيّاً، بل شَرارةً داخليةً واهنة. هَشّة. هامِسة. تُوحي بأنَّ هذه المُعاناةَ ليست غايةً في ذاتها، بل عُبوراً ضرورياً. وأنَّ العَتمةَ

ليست المكانَ الذي يَجِبُ أن أَبقى فيه، بل المكانَ الذي يَنبغي أن أَتَحَوَّلَ فيه.

مَولِدٌ جَديدٌ من رَحِم الألم

تَعَلَّمتُ، شيئاً فشيئاً، أن أَتوَقَّفَ عن الفِرارِ من الألم، وأن أَفتَحَ نفسي له ببَساطة.
عَبرَه، اكتَشَفتُ دُروساً ما كنتُ لِأَتَوَقَّعَها أبداً. تَعَلَّمتُ أن أُصالِحَ مَخاوفي. أن أَغفِرَ لِماضيَّ. أن أَتَصَوَّرَ، شيئاً فشيئاً، مُستَقبَلاً تَصيرُ فيه كلُّ نَدْبَةٍ رَمزاً لِتَحَوُّلٍ داخلي، بَدَلاً من أن تَكونَ علامةَ هَزيمة.
تلك الليلةُ الروحية، رَغمَ ظُلمَتِها، كانت تُعَلِّمُني أن أُولَدَ من جديد — لا رَغمَ المُعاناة، بل عَبرَها.

نورٌ يُضيءُ ما وراء الظلام

حين أَلتَفِتُ اليومَ إلى الوراء، أرى ما لم أَكُن أَستَطيعُ رؤيتَه آنذاك: أنَّ كلَّ ظاهرة، وكلَّ ابتلاء، وكلَّ علامةٍ لا تَجِدُ تفسيراً، كانت باباً. باباً نحوَ فَهمٍ جديدٍ للعالم — فَهمٍ يَتَجاوَزُ حُدودَ اليَقينياتِ الجامِدة، يَنفَتِحُ على واقعٍ لانهائيٍّ كنتُ بالكادِ أَبدأُ في لَمحِه.

لم يَكُن الظلامُ صُدفة، بل كان خياراً مِعمارياً.

بَدا كلُّ شيءٍ مُنَظَّماً بدِقَّةٍ بالغة لِيَرفَعَني، ويُوقِظَني، ويُعَمِّقَ إدراكي لِواقعٍ أَوسعَ بكثيرٍ مما سَمَحَ لي حُزني بأن أَتَخَيَّلَه.

تلك الليلة، مَهما كانت مُرعبة، عَلَّمَتني أنّه حتى في أَعمَقِ العَتمة، يَنتَظِرُ نورٌ بصَبرٍ أن يُكتَشَف.

إنّه يَنتَظِرُ منذ الأَزَل.

لَم يَطلُب منّي شيئاً، ولم يَفرِض حُضوراً ولا غِياباً. اكتَفى بأن يَبقى — كَنَفَسٍ ثابتٍ تحت كلّ نَفَسٍ يَضطَرِب، كَأرضٍ صَلبةٍ تحت كلّ

خَطوةٍ تَتَعَثَّر. ولذلك، حين عاد إليَّ السكون، عَرَفتُ أنّه لم يَغِب يوماً.

وأَعلَمُ الآنَ أنّ تلك الليلةَ لم تَكُن وحدها — سبعةُ عيون كانت تَنتَظِرُ معها.

⌘

الفصل الخامس

انبِثاق الكوندالينيّ

لاهاي، ٢٠٠٩–٢٠١٠ ـــ العُبور

البَطّاريّة

أَدارَ تِقَنيُّ شَركة « آبِل » (Apple) الكمبيوتر بَينَ يَدَيهِ مَلِيّاً قَبلَ أن يَرفَعَ بَصَرَه.

« لم تُسَجَّل هذه الظاهرة في العالَم سوى مَرَّتَين، » قال. « مَرَّتُكَ هذه ـــ وحالةٌ واحدةٌ في اليابان. »

كانت البَطّاريّةُ قد انتَفَخَت بِشَكلٍ مُذهِل، وأَخَذَت تَنِزُّ مادّةً سَوداء أَشبَهَ بِالإسفَلت. لم تَعُد لَوحَةُ التَّتَبُّع « تراك باد » (trackpad) تَستَجيبُ كالمُعتاد. والشاشةُ كانت تَتَأَثَّرُ بِمُجَرَّدِ اقتِرابِ يَدي، كَأَنَّها خاضِعَةٌ لِحَقلٍ غَيرِ مَرئيّ. كنتُ قد جِئتُ بِالجِهازِ مُتَوَقِّعاً تَصليحاً اعتياديّاً. لكنَّ ما تَلَقَّيتُهُ، بَدَلاً من ذلك، كان تَأكيداً ـــ سَريريّاً، شِبهَ مُمتَنِع ـــ أنّ شَيئاً ما، فِيَّ أو حَولي، قد تَجاوَزَ حُدودَ المَألوف.

كنتُ أَعرِفُ ذلك سَلَفاً. فَقد أَمضَيتُ الليلةَ السابِقَة ساكِناً سِتَّ ساعاتٍ كامِلة، عاجِزاً عن أن أُرخِيَ قَبضَتي على الحَجَرَتَين اللَّتَين كانَتا في يَدَيّ. اِستَيقَظتُ في الوَضعِيَّةِ نَفسِها التي كنتُ قد نِمتُ فيها.

وفي الأيّامِ التي تَلَت، أَخَذَت المَصابيحُ تَنفَجِرُ، الواحِدُ تِلوَ الآخَر، في اللَّحظَةِ ذاتِها التي أَدخُلُ فيها إلى غُرفة.

لِيُفهَمَ كيف بَلَغتُ هذه الحال، يَنبَغي العَودَةُ إلى البِداية — إلى أَشهُرِ التَأَمُّل، وإلى اكتِشافِ الغُفران، وإلى مَقطَعٍ فيديو قَصيرٍ عَثَرتُ علَيهِ ذاتَ بَعدِ ظَهرٍ، فَغَيَّرَ كلَّ شَيء.

نِداءُ الفَراغ

بَينَ عامَي ٢٠٠٩ و٢٠١٠، في أَعقابِ الأَزمةِ الاقتصاديّةِ العالَميّة وما تَبِعَها من تَسريحٍ من عَمَلي، اتَّخَذتُ قَراراً. سَأَكُفُّ عن انتِظارِ أن تَستَأنِفَ حَياتي مَسارَها، وسَأَلتَفِتُ إلى الداخِل — بِوَعيٍ تامّ، بِامتِلاءٍ كامِل، من دونِ تَحَفُّظ.

أُوَضِّحُ مُنذُ الآن: لم يَكُن ذلك سَعياً روحيّاً، ولا طُموحاً داخليّاً، ولا رَغبَةً في بُلوغِ حالةٍ مُعَيَّنة. كان ضَرورةً وُجوديّة. ثَمَّةَ في الحَياةِ مَناطِقُ ظِلٍّ لا تُفاوِض. تَفرِضُ نَفسَها. تَنزِعُ المَعالِم، تُزيلُ الأَوهام، وتُجَرِّدُ حتى أَكثَرَ اليَقينياتِ تَجَذُّراً. وتَدفَعُكَ إلى الجُلوسِ في مُواجَهَةِ ذاتِك — لا اختياراً، بل لأنّه لم يَعُد ثَمَّةَ ما يُفعَل سِواه.

ما تَلا ذلك كان أَكثَفَ مُمارَسَةٍ خُضتُها في حَياتي. كنتُ، كلَّ يَوم، أُكَرِّسُ سِتَّ إلى سَبعِ ساعاتٍ لِمَجموعةٍ من الانضِباطات: تَأَمُّلٌ في وَضعِيّةِ « اللوتس » (Lotus) لِجَلَساتٍ طَويلة؛ واستِلقاءٌ مع وَضعِ حِجارٍ وبَلّوراتٍ مُباشَرَةً على جَسَدي، كلٌّ منها مُوافِقٌ لِأَلوانِ

« الشاكرات » (chakras) وطاقاتِها؛ ومَشيٌ تَأَمُّليٌّ طَويلٌ على شَواطِئِ بَحرِ الشَمال. كانت قُوَّةٌ داخليّةٌ غامِضةٌ تَقودُني، من دونِ أن أُدرِكَ بَعدُ طَبيعَتَها ولا اتِّجاهَها.

ثُمَّ، ذاتَ يَومٍ، انقَلَبَ كلُّ شَيء.

قادَني حَدسي إلى « شري ماتاجي نيرمالا ديفي » (Shri Mataji Nirmala Devi) — اسمٌ لم أَكُن قد سَمِعتُ به من قَبل. سَحَرَني مَقطَعُ فيديو قَصيرٌ تُفَسِّرُ فيه كيف تُوقَظُ « كونداليني » (Kundalini)، مَصحوباً بِسَبعَةِ مُخَطَّطاتٍ دَقيقةٍ تُمَثِّلُ وَضعَ اليَدَين خِلالَ التَأَمُّلِ في وَضعِيَّةِ اللوتس. تابَعتُ التَمرينَ بِدِقَّةٍ صارِمة.

وهكذا انبَثَقَتْ كونداليتّي.

لكن ليس بَعد. ليس فَوراً. قَبلَ أن يَتَحَقَّقَ ذلك، كان ثَمَّةَ عَتَبَةٌ يَنبَغي عُبورُها — عَتَبَةٌ كانت شري ماتاجي نَفسُها تُسَمّيها الشَرطَ الجَوهَريَّ لِكُلِّ المَسار.

الغُفران.

الغُفرانُ الكبير

في الدُروسِ المُسَجَّلَة التي كنتُ أُتابِعُها على « يوتيوب » (YouTube)، كانت تَقول:

« تَمَنّوا بِصِدقٍ صافٍ تَحَقُّقَكُم ـــ النارَ الداخليّةَ التي تُنادي الأمَّ كونداليني. »

« اِغفِروا لِكُلِّ الناس، واغفِروا لِأَنفُسِكُم ـــ اِفتَحوا المَعبَر. »

« إذا تَوَفَّرَ لَدَيكُمْ هذانِ الأَمران، فالكونداليني سَتَرتَفِعُ من دونِ جُهد. »

لم يَكُن ذلك غُفراناً مُجامِلاً ولا شَكلِيّاً. كان غُفراناً كَبيراً ـــ عَميقاً، شامِلاً، يَكادُ يَكونُ جَذريّاً. فِعلٌ داخليٌّ كنتُ أُدعى من خِلالِه إلى وَضعِ الأَحقاد، والجُروحِ المُتَراكِمة، والعَتَبِ الصامِتِ الذي كنتُ أَحمِلُه تِجاهَ الآخَرين كما تِجاهَ نَفسي.

طِيلَةَ سِتَّةِ أَشهُر، غَذَّيتُ هذه المُمارَسَة بِانضِباطٍ يَوميٍّ ثابِت. كلَّ يَوم، كنتُ أَجلِس، وأَضَعُ يَدَيّ، وأَتبَعُ إرشادَ شري ماتاجي، وأَدَعُ التَيّارَ الداخليَّ يَتَعَزَّزُ بِهُدوء. ثُمَّ، في اللَّحظَةِ التي كنتُ أَهمِسُ فيها، عَينايَ مُغمَضَتان: « لقد غَفَرتُ لِكُلِّ الناس » ـــ كَأَنَّما لِأُثبِتَ لِنَفسي أنّ ذلك لم يَكُن صادِقاً ـــ كانت تَظهَرُ ثَلاثَةُ وُجوهٍ في ذِهني. تَتَّهِمُني في صَمت. لقد كَذَبت.

طِيلَةَ سِتَّةِ أَشهُرٍ أُخرى، من دونِ هَوادة، مارَستُ ساعاتٍ طَويلة لِأَغفِرَ حَقّاً. اختَفى وَجهٌ أَوَّل. ثُمَّ الثاني. أمّا الثالِثُ فقد ظَلَّ صامِداً.

كان أَحَدَ أَفرادِ العائلةِ المُقَرَّبين ـــ شابّاً في حينِها، أَحبَبتُهُ كَثيراً، وكانت أُمّي تُحِبُّهُ قَدرَ ما أُحِبُّه. خِيانَتُهُ، كما كنتُ أَراها آنَذاك، كانت في ما يَلي: صُوَرُ العائلة ـــ صُوَرُ أَجدادِنا المُمتَدَّةُ إلى البِداياتِ الأولى لِفَنِّ التَّصوير، وما يُعادِلُ عِندَنا شَجَرَةَ النَّسَب ـــ التي انتَهى الأمرُ بِأن احتَفَظَ بِها لِنَفسِه. كنتُ قد عَلِمتُ بِأنَّ المَرءَ إذا أَعطى كَلِمَتَه، يَفي بِها. وهو قد كَسَرَ هذه الثِقة. وكلُّ الحُبِّ الذي كنتُ أَحمِلُهُ له، تَحَوَّلَ إلى غَضَبٍ وعَدَمِ فَهم.

كان الأَصعَبَ في الغُفران.

حينَ بَلَغتُ ذلك أَخيراً بِحَقّ ـــ حينَ تَلاشى وَجهُهُ من رُؤيَتي الداخليّة بَينَما كنتُ أَهمِسُ بِتِلكَ الكَلِمات ـــ حَدَثَ شَيءٌ غَيرُ عاديّ. الثِّقلُ الذي كنتُ أَجُرُّهُ مُنذُ سَنَواتٍ تَبَدَّدَ في الحال، وحَلَّت مَحَلَّهُ رُؤيةٌ كَشَفَت لي سَبَبَ فِعلِه. كان في التاسِعَةَ عَشرَةَ من عُمرِهِ يَومَ وَفاةِ أُمّي ـــ جَدَّتُهُ المَعبودة. كانت الرابِطَةُ بَينَهُما عَميقة. في غِيابي، كانت قد مَلَأَت حَياتَهُ بِحُضورِها. عاشَ مَعَنا حتى بَلَغَ السابِعَة؛ وكنتُ قد ساهَمتُ بِشَكلٍ غَيرِ مُباشَرٍ في تَربِيَتِه. كانت أُمّي تَحكي لي:

« كِلّ ما بيجي يزورني، بيطلُب يتفرج عَ صُوَر العيلة. بيتأَمَّلْها كثير. أوقات بيشِمّ ريحة الوَرَق العَتيق. ومَرّات بينام عَتَخْتي بين هالصُوَر. »

لم يَكُن قد سَرَقَها. كان قد احتَفَظَ بِها بِمَحَبَّةٍ خالِصة — بِحُزنٍ أَعمَقَ وأَكثَرَ خُصوصيّةً من أن يَستَطيعَ تَفسيرَه. وأنا، الذي وَسَمتُهُ بِاللِّصِّ ورَوَيتُ لِمَن شاءَ من العائلةِ أن يَسمَعَ ما فَعَل — قد أَلحَقتُ ضَرَراً وأنا أَحسَبُ أنّي أُدافِعُ عن العَدالة.

كنتُ قد ذُقتُ سَلَفاً مَرارَةَ أن أَكونَ قد أَسَأتُ الحُكمَ على أَبي — رَجُلٌ لم أَفهَم مَرَضَهُ الخَفيَّ إلاّ بَعدَ وَفاتِه. وها أنا ذا أُكَرِّرُ الخَطَأَ نَفسَه بِحَذافيرِه، هذه المَرَّةَ مع ابنِ أُختي.

اتَّصَلتُ بِهِ هاتِفيّاً — لِدَهشَتِهِ الكُبرى، بَعدَ سَنَواتٍ من القَطيعة — لِأَقولَ له إنّي أَغفِرُ له فِعلَه، وأَطلُبَ منهُ أن يَغفِرَ لي بِدَورِه. أَجابَني، مُستَغرِباً:

« بَس خالو، أنا اللّي أَخَدْت الصُوَر — إنْتَ اللّي لازِم تسامحني أو لَأ، مِش أنا ! »

شَرَحتُ له أنّي في غَضَبي الذي لا يوصَف، كنتُ قد رَوَيتُ لِأَفرادٍ من العائلةِ ما فَعَل — وأنّي ما كان يَنبَغي لي ذلك، لأنّ مِثلَ هذا يَجرَح.

مُذ ذاك، تَفَرَّقَت طُرُقُنا. ما زالَت الصُّوَرُ مَعَه. وأنا، أُتابِعُ الطَريق — مُمارِساً الحُبَّ غَيرَ المَشروط، من دونِ أن أَحكُمَ على أَفعالِ الآخَرين.

فَتَحَت هذه البادِرَةُ الرّوحيّةُ ثُغرَةً فِيَّ. لِأَوَّلِ مَرَّة، شَعَرتُ بِخِفَّةٍ لم أَكُن أَتَوَقَّعُها — سَلامٌ لا عاطِفيٌّ بل مَكانيّ، كَسَماءٍ شاسِعَةٍ مَفتوحة. ومن هذا الغُفرانِ وُلِدَ ما هو أَوسَعُ بَعد: الحُبُّ غَيرُ المَشروط. لا حُبٌّ مُوَجَّهٌ نَحوَ أَحَدٍ بِعَينِه، بل حالةُ كَينونة. إشعاعٌ من القَلبِ لا يَطلُبُ شَيئاً في المُقابِل، ولا يَحكُمُ على أَحَد، ولا يَضَعُ شَرطاً لِوُجودِه. كنتُ فَقَط أَمُرُّ بِه، كَأَنَّ الحَياةَ نَفسَها كانت تُحِبُّ عَبري.

وفي خِتامِ هذا المَوسِمِ الطَّويلِ من النُّضج، شِبهَ تِلقائيّاً، حَدَثَ أَخيراً ما كنتُ أَنتَظِرُهُ مُنذُ زَمَن.

البَرقُ البارد

اِنبَثَقَ إحساسٌ جَليديٌّ فَجأَةً من عَجُزي، وصَعِدَ عُمودي الفِقريَّ كَبَرقٍ سَماويّ، ثُمَّ انسَكَبَ حتى قِمَّةِ جُمجُمَتي — ناشِراً شَلّالاً نورانيّاً عَبرَ كلِّ جَسَدي. حينَ مَرَّرتُ يَدي فَوقَ اليافوخ — تِلكَ النُّقطَةُ الدَّقيقَة في قِمَّةِ الجُمجُمَة التي لا تَعودُ مَوجودَةً عِندَ الكِبار، لَكِنَّ شري ماتاجي كانت تُشيرُ إليها بِوَصفِها مَوضِعَ الانبِثاقِ بِالتَّحديد — أَكَّدَ نَفَسٌ بارِدٌ مَحسوسٌ أنّ شَيئاً غَيرَ عاديٍّ قد استَيقَظَ فِيَّ لِلتَّوّ. لِكَي أَتَأَكَّد، أَزَحتُ يَدي إلى جَنبَي رَأسي: اختَفى النَّسيمُ تَماماً. عُدتُ إلى اليافوخ: كانت البُرودَةُ المُنتَشِرَة لا تَزال هُناك. كان الانبِثاقُ يَجري فِعلاً من هذه النُّقطَةِ الوَحيدَة، لا من خِلالِ الجُمجُمَةِ كُلِّها.

كانت الكونداليني.

أُوَضِّحُ الأَمر، لأنّي أَعرِفُ كَم أنّ هذه الكَلِمَةَ قد ابتُذِلَت. عِندَ الكَثيرين، الكونداليني رَمز — ثُعبان، صُعودُ نار، استِعارةٌ صوفيّةٌ مَوروثَةٌ من تَقاليدَ بَعيدَة. أمّا بِالنِّسبَةِ إليّ، فلم تَكُن شَيئاً من ذلك. كانت حَدَثاً جَسَديّاً، فُجائيّاً، لا يَقبَلُ النِّقاش. بُرودَةٌ حَقيقيّة، قابِلَةٌ لِلقياسِ على بُعدِ سَنتيمِتراتٍ عِدَّة فَوقَ اليافوخ، لا تُشبِهُ شَيئاً مما عَرَفتُهُ من قَبل. وغَيَّرَت، في ثَوانٍ، عَلاقَتي بِالحُضور، وبِالصَّمت، وبِالواقِع.

مُنذُ تِلكَ اللَّحظَة، تَغَيَّرَ إدراكي لِلعالَمِ تَغَيُّراً جَذريّاً. غَمَرَتني أَصواتٌ دَقيقَة. اكتَسَبَ حَدسي دِقَّةً جِراحيّة. تَضاعَفَت التَّزامُنات. كنتُ أَشعُرُ بِتَيّارٍ قَوِيٍّ يَسري فِيَّ، فاتِحاً مَعبَراً نَحوَ واقعٍ أَوسَعَ بِكَثيرٍ من كلِّ ما عَرَفتُهُ سابِقاً.

مُعَدَّلُ ذَبذَباتي — الذي كنتُ أَقيسُهُ عادَةً على ساعَتي لِلكَشفِ بِالاستِشعار « راديستيزيا » (radiesthésie)، بَينَ صِفر و١٨٠٠٠ وَحدَة « بوفيس » (Bovis) — كان يَتَجاوَزُ هذا المِقياسَ بِكَثير. بِمُراقَبَتي البَندولَ يَدورُ بِجُنونٍ خارِجَ حُدودِهِ المُعتادَة، شَعَرتُ في آنٍ مَعاً بِالافتِتانِ والتَّوَجُّس، كَأَنَّ جُزءاً مَجهولاً منّي قد تَفَعَّلَ لِلتَوّ. سَريعاً جِدّاً، بَدَأَ مَن حَولي — وأَشخاصٌ غُرَباءُ كَثيرون — يَطلُبون منّي، بِشَكلٍ غَيرِ مُبَرَّر، نَصائحَ، وعِلاجات، أو حتى تَنقيَةَ شُقَقٍ وأَشياء. كنتُ مَذهولاً. أنا الذي كنتُ أَعتَبِرُ نَفسي

عادِيّاً، عِلمانيّاً، بَعيداً عن أيّ روحانيّةٍ مُنَظَّمة — ومع ذلك، كلُّ تَدَخُّلٍ كنتُ أَقبَلُه يَثبُتُ نَجاحُه، فَيُعَزِّزُ ثِقَتَهُم بي، وحتى ثِقَتي بِنَفسي.

هُنا، على ما أَحسَب، يَكمُنُ أَوَّلُ التِباسٍ كَبير. يُتَصَوَّرُ الانبِثاقُ مُكافَأَةً، أو مَقاماً، أو غايةً. ليس شَيئاً من ذلك. بل العَكسُ تَماماً: تَخَلٍّ. ذَكاءٌ غَيرُ شَخصيّ، حَتميّ، نورانيّ، يَكشِفُ ما هو حَقيقيّ ويُذَوِّبُ ما هو زائف. ليس له إيديولوجيا. ولا يَتَوَقَّفُ على دِينٍ ما. ولا يَنتَمي إلى أَحَد. ولا يُكتَسَبُ بِالاستِحقاق. ولا يُكافِئُ شَيئاً. ولا يُعاقِبُ شَيئاً. يَنبَثِقُ حينَ تَتَوَفَّرُ الشُّروطُ الداخليّة — في الغالِبِ حين لا يَعودُ يُنتَظَر.

حِجارَةُ البوجي والصَدمَةُ الكَهرَبائيّة

في تِلكَ الفَترة، اكتَشَفتُ حِجارَةَ « بوجي » (Bojis) — بِنَصيحَةٍ من « إيرين » (Irène)، التي كانت تَملِكُ في لاهاي مَتجَراً لِلبَلّوراتِ والأَحجار. مَشهورَةٌ بِطاقَتِها المُستَقطَبَةِ القَوِيّة، وكانت بُنّيَّةَ اللَّون داكِنة، خَشِنَةً بِشَكلٍ غَريب، تَمتَلِكُ مِغناطيسيّةً مُكَثَّفَةً إلى حَدِّ أنّها تَتَنافَرُ تَنافُراً خَفيفاً حينَ تُقَرَّبُ الواحِدَةُ من الأُخرى.

لم تَكُن إيرين تاجِرَةً فَحَسب. كانت أَيضاً تُديرُ مَدرَسةً صَغيرةً مُلتَصِقَةً بِمَتجَرِها، تُقَدِّمُ فيها تَكويناتٍ في تِقَنياتٍ كانت، حتى ذلك الحين، غَريبَةً عَنّي تَماماً: استِخدامُ البَندول، ولَوحَةُ الراديستيزيا، وقِراءَةُ الطاقات. كلُّ ما سَأَستَعمِلُهُ في الأَشهُرِ التالية — بِما في

ذلك، من دونِ أن أَعلَمَ بَعد، طَقسُ الأَرواح — تَلَقَّيتُ أُسُسَهُ بَينَ جُدرانِها.

مُنذُ تَأَمُّلي الأَوَّلِ بِالبوجي — الحَجَرَةُ الأُنثى المَلساء في يَدي اليُسرى، والحَجَرَةُ الذَكَرُ الأَخشَنُ في يَدي اليُمنى — شَعَرتُ بِتَيّارٍ قَوِيٍّ من الوَخزِ يَجتاحُ جَسَدي، يَتَرَكَّزُ بِشَكلٍ خاصٍّ على ظَهري المُؤلِم، فَيُهَدِّئُ بِشَكلٍ شِبهِ فَوريٍّ التَوَتُّرَ الذي كان يَنخُرُني. هذا المَزيجُ من الراحَةِ الجَسَديّة والعُمقِ التَأَمُّليّ أَقنَعَني بِأن أَجعَلَ منه طَقساً لَيليّاً.

ذاتَ مَساء، مُنهَكاً بَعدَ يَومٍ طَويل، اخترتُ أن أَتَأَمَّلَ بِها لَحَظاتٍ قَبلَ النَّوم. اِستَلقَيتُ، والحِجارَتانِ في يَدَيّ — وغَفَوت.

عِندَ الاستِيقاظ، حين فَتَحتُ عَينَيّ، وَجَدتُ نَفسي في الوَضعِيّةِ نَفسِها بِالضَّبط، ساكِناً مُنذُ سِتِّ ساعاتٍ كامِلة، عاجِزاً حتى عن أن أُرخِيَ قَبضَتي على الحَجَرَتَين. غَمَرَني الذُّعر. كان مُحَذِّراً بِشِدّةٍ من تَجاوُزِ خَمسَ عَشرَةَ دَقيقَةً في التَأَمُّلِ بِها.

وحينَئذٍ، فَتَحتُ « ماك بوك » (MacBook).

ما يُعيدُنا إلى مَتجَرِ آبِل، وإلى التِّقَنيِّ الذي لم يَكُن قد رَأى مِثلَ ذلك من قَبل. مَرَّتَين في العالَم. مَرَّتي هذه، وحالةٌ في اليابان.

في الأيّامِ التي تَلَت، انفَجَرَت المَصابيحُ الواحِدُ تِلوَ الآخَر كُلَّما دَخَلتُ غُرفة. مَذعوراً، عُدتُ إلى إيرين لِأَطلُبَ مُساعَدَتَها. بَعدَ أن أَنَّبَتني بِشِدّةٍ على تَهَوُّري، نَصَحَتني بِعِلاجٍ بَسيطٍ لَكِنَّه جَذريّ: أن أَستَحِمَّ كلَّ يَومٍ في بَحرِ الشَمال. مِلحُ البَحر، قالَت، يُذيبُ فُيوضَ الطاقَة مِثلَما يُطَهِّرُ البَلّورات.

طِيلَةَ سِتَّةِ أَشهُر، خَضَعتُ لِتِلكَ الانغِماساتِ الجَليديّة. شَيئاً فَشَيئاً، تَبَدَّدَ الفائضُ الاهتِزازيّ. كان ذلك، من دونِ أن أَعلَمَ بَعد، أَوَّلَ دَرسٍ حَقيقيٍّ لي في الاندِماج. القُوَّةُ التي تَعبُرُ كائناً بَشَرِيّاً لا يُمكِنُها أن تَبقى في ذُروَتِها من دونِ أن تَكسِرَه. عَلَيها أن تَجِدَ سَبيلاً لِتَتَجَذَّرَ في الجَسَد، وفي اليَومِيّ، وفي الواقِع. الانبِثاقُ ليس صُعوداً. إنّه عُبور. وأَحياناً، يَجِبُ أن نَعرِفَ كيف نُبطِئُ هذا العُبور لِكي لا نَضيعَ فيه.

ومع ذلك، ظَلَّت تِلكَ الأَشهُرُ مَوسومَةً بِكَثافةٍ غَريبة — أَصبَحَ حَدسي بِدِقَّةٍ خارِقة، وتَواتَرَت تَبادُلاتٌ تَخاطُرِيّةٌ عَفوِيَّةٌ بِشَكلٍ مُنتَظِم. ثُمَّ، بَعدَ أُسبوعَينِ من استِعادَتي حالةً أَكثَرَ انسِجاماً، اقتَحَمَ حياتي بُعدٌ جَديد.

دَليلُ الأَرواح

كلُّ شَيءٍ بَدَأَ بِظَواهِرَ غَريبَةٍ في شَقَّتي الهادِئَة في لاهاي.

خُدوشٌ غامِضةٌ على الجُدران. طَقطَقاتٌ لا تُفَسَّرُ في السَّرير، كَأَنَّ

أَحَداً يَجلِسُ علَيه. عُطورٌ مَجهولَةٌ تَظهَرُ خِلالَ تَأَمُّلاتي. آلَةُ الطِّباعَةِ عِندي تَعمَلُ من تِلقاءِ نَفسِها.

عُدتُ إلى مَتجَرِ إيرين. إحدى البائعاتِ عِندَها، من دونِ مُفاجَأَة، ابتَسَمَت في هُدوء:

« فرانسوا، إنتَ دليل للأرواح — بَس بعدك ما عَم تِعرَف هل شي. هَيْدول الأَرواح عَم بِنجِذبوا لَنورَك الداخليّ. لازِم تساعِدُن ليروحوا عَالنور. »

فَشَرَحَت لي طَقساً مُحَدَّداً: تَطهيرُ الغُرفةِ بِالمَريَمِيَّةِ البَيضاء؛ ووَضعُ شَمعةٍ صَغيرةٍ قُربَ بَلَّورَةٍ من الكوارتز؛ واستِخدامُ البَندولِ مع لَوحَةِ الراديستيزيا؛ ثُمَّ إرشادُ كلِّ روحٍ لِتَتبَعَ نورَ الشَمعةِ عَبرَ البَلَّورة.

في مُحاوَلَتي الأُولى، سَقَطَت البَلَّورَةُ على الأرضِ مَرَّتَين — وأنا أُوَلِّيها ظَهري ولَم أَكُن قد بَدَأتُ بَعد. رَغمَ خَوفي المُتَزايِد، تابَعت. وفيما كنتُ أُرشِدُ الرّوحَ بِصَوتٍ عالٍ، اضطَرَبَ لَهَبُ الشَمعةِ ودُخانُ البَخورِ اضطِراباً مَحموماً. بَعدَ خَمسَ عَشرَةَ دَقيقَةً مُضنِيَة، غَمَرَ صَدري ارتِياحٌ هائل. اِستَقَرَّ اللَهَب. صَعِدَ البَخورُ بِهُدوء. كانت الرّوحُ قد رَحَلَت.

جالِساً في الصَّمتِ المُستَعاد، أَحسَستُ كَم أنّ الحَدَّ رَقيقٌ بَينَ العالَمِ المَرئيّ واللامَرئيّ. كَشَفَ بَندولي حينَئذٍ أنّه ما زالَ ثَمَّةَ إحدى

وعِشرونَ روحاً تَحتاجُ إلى إرشادٍ نَحوَ النور. قَبِلتُ هذه المُهِمَّةَ المُرهِقة — واكتَشَفتُ أنّها لم تَكُن كلُّها مُسالِمة. بَعضُها كان مَذعوراً، مُتَهَلِّفاً. كلُّ عُبورٍ كان يُفرِغُني أَكثَر.

ولم تَكُن العُبورُ وَحدَها.

مُنذُ الانبِثاق، كان جَسَدي يَرتَجِفُ من الداخِل، لَيلاً ونَهاراً، كَمُحَرِّكِ « هارلي دافيدسون » (Harley Davidson) يَدورُ بِخُمول. اِهتِزازٌ مُستَمِرّ، خافِت، عَميق — لا يَظهَرُ من الخارِج. حين كنتُ أَمُدُّ يَدي، لم تَكُن تَرتَجِف. لَكِن في الداخِل، كان ثَمَّةَ شَيءٌ يَدورُ من دونِ هَوادة. كان ذلك مُستَمِرّاً مُنذُ أَشهُر. أَصبَحَ نَومي خَفيفاً، قَليلَ الإراحة. كنتُ قد فَقَدتُ عَشرَةَ كيلوغرامات تَقريباً من دونِ أن أَنتَبِه. كان جَسَدي يَصمُد، لَكِن بِكُلفَةٍ مُتَصاعِدة.

إلى أن جاءَ اليَوم الذي، في إنهاكٍ خالِص، تَوَجَّهتُ فيه إلى المَنبَعِ الذي كان يَقودُني، وطَلَبتُ منهُ أن يَتَوَقَّفَ كلُّ هذا — وأن تُسنَدَ إليَّ مُهِمَّةٌ أُخرى في خِدمَةِ الإنسانيّة.

ما حَدَثَ بَعدَ ذلك، لم أَكُن مُتَأَكِّداً منه في تِلكَ اللَّحظة. لَكِنَّ انطِباعاً واضِحاً جِدّاً فَرَضَ نَفسَهُ عَلَيّ.

فَوقَ السَبعَةِ الحُكَماء — تِلكَ الحُضوراتُ التي كنتُ أَستَشعِرُها من حَولي مُنذُ ليلةِ ٢٠٠٨، مُنذُ المَرَّةِ التي كِدتُ أَنسَحِبُ فيها من الحياة — كانت ثَمَّةَ، في الأَشهُرِ الأَخيرة، حُضوراتٌ أُخرى. أَقَلُّ

عَدَداً. ثَلاثة، رُبَّما أَربَعة. مَرحَة، نَشيطة، شِبه ماكِرة. هي التي قادَتني عَبرَ التَّزامُنات: اللابرادوريت، إيرين، البَلَّورات، فيديو شري ماتاجي، الانبِثاقُ نَفسُه. كانت قد نَظَّمَت الطَريقَ بِحَماسٍ أَدرَكتُ الآن أنّهُ كان مُتَسَرِّعاً بَعضَ الشَيء.

وهذا تَحديداً ما كان حُضورٌ أَقدَم وأَعلى يَعتِبُ علَيها بِهِ في تِلكَ اللَّحظة. من دونِ قَسوة، لَكِن بِحَزم. كانت قد أَخطَأَت في تَقديرِ ما يُمكِنُ لِجَسَدٍ بَشَريٍّ أن يَتَحَمَّلَه. الإيقاعُ كان عَنيفاً. والجُرعَةُ، كانت مُرَكَّزَةً أَكثَرَ مِمّا يَنبَغي. أَرادَت لي أن أَصِلَ بِسُرعة — بِسُرعةٍ مُفرِطَة. المُشرِفُ كان يُذَكِّرُها بِأنّي كائنٌ من لَحم، وأنّ هذا اللَّحمَ له حُدود.

كان لَدَيَّ شُعورٌ واضِحٌ بِأنّي كنتُ حالةَ دِراسة. مَرحَلَةً في تَكوينِها. وأنّ هذه المَرحَلَةَ قد انتَهَت لِلتَوّ.

بَعدَ ثَلاثَةِ أيّام، تَوَقَّفَ كلُّ شَيءٍ فَجأَة. لم يَعُد ثَمَّةَ أيُّ اتِّصال. لم تَعُد ثَمَّةَ أيُّ ظاهِرَة. عُدتُ شَخصاً عاديّاً.

حينَ أَدرَكتُ ذلك، حاوَلتُ كلَّ شَيءٍ لِأَستَعيدَ هذه الصِّلَةَ غَيرَ العاديّة. تَوَسَّلت. تَأَمَّلتُ ساعاتٍ طَويلة. بَكَيت — لأنّ الغِبطَةَ التي كنتُ أَنغَمِسُ فيها بَدَت لي غَيرَ واقِعيّة، كَحُلمٍ انتُزِعَ في لَحظَة.

هذا أَحَدُ المَقاطِعِ الأَصعَبِ قَولاً، وأَحَدُ الأَهَمّ. لأنّ التَخَلّيَ عن النِعمة، حينَ يَحدُث، يَكشِفُ ما قد يَكونُ في الانبِثاقِ من سُكر. يَظُنُّ

المَرءُ أنّه لَمسَ شَيئاً خالِداً؛ فَيَكتَشِفُ أنّه قد تَعَلَّقَ به كَما يَتَعَلَّقُ بِأَيّ تَجرِبَةٍ أُخرى. وهذا التَعَلُّقُ بِالذات هو الذي يَجِبُ، بِدَورِه، أن يُغفَرَ — ثُمَّ أن يُترَك.

لاحَظتُ أَيضاً، فَقَط في تِلكَ اللَّحظة، أنّه مُنذُ سِتَّةِ أَشهُرٍ على الأَقَلّ — من دونِ أيّ قَرارٍ واعٍ — كنتُ قد كَفَفتُ عن أَكلِ اللَّحم، مع أنّي كنتُ آكُلُهُ سابِقاً مَرَّتَين في اليَوم. صَعِدَ الجَوابُ فِيَّ كَبَديهيّة: اهتِزازيّاً، صارَ هذا الطَعامُ مُتَنافِراً مع الصِلَةِ التي كنتُ أَعيشُها.

أمّا الحُكَماء، فقد كنتُ أَشعُرُ أنّهم لم يَرحَلوا. كانوا قد انسَحَبوا قَليلاً فَحَسب، رَيثَما يَستَعيدُ جَسَدي قُواه، ويَستَعيدُ الإنسانُ فِيَّ تَوازُنَه. كان المُشرِفُ قد وَضَعَ حَدّاً. وهذا الحَدُّ سَيُحتَرَم. والخَيطُ — هذا الخَيطُ الذي شَعَرتُ بِهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في لَيلَةِ ٢٠٠٨ — لن يَنقَطِعَ أَبَداً.

جَسَدٌ يَستَحِقُّ الإكرام

أُرشِدتُ إلى مُغادَرَةِ هولندا والعَودَةِ إلى فَرَنسا — كَأَنَّ مَهَمَّةً أُخرى كانت تَنتَظِرُني هُناك.

أَعادَتني هذه التَجَلِّياتُ العَميقَة، شَيئاً فَشَيئاً، إلى وَعيٍ غَريبٍ ومَألوفٍ في آنٍ مَعاً — خاصَّةً حين كنتُ أَتَأَمَّلُ صورَتي في المِرآة. كنتُ أَرى هذا الجَسَدَ البَشَريّ — رَفيقَ طَريقي الأَمين —، الذي يُتابِعُني أَينَما ذَهَبتُ بِصَبرٍ وطاعة. جَسَدٌ لم أَختَرهُ صُدفَة. هو أَداةُ

هذا التَّجَسُّد، وأنا مَدينٌ له بِالامتِنان، والاحتِرام، والعِناية، والرِّفقِ حتى إتمامِ مَهَمَّتي هُنا، في هذه الكَثافةِ الأَرضيّة.

مُنذُ أن عِشتُ مُجَدَّداً، لِبُرهَةٍ قَصيرة، حالَتي الأَصليّةَ من الوَعيِ الصافي مع الأمّ آياهواسكا، يَبقى جُزءٌ مِنّي مُرتاحاً في تِلكَ الذاكِرَة. يَحدُثُ أن أُلاقي مُجَدَّداً نَظرَةَ هذا الجَسَد — جَسَدي — وأن أَشعُرَ تِجاهَهُ بِحَنانٍ بَسيط. وَعَدتُهُ بِأن أَعتَنيَ به، وأن أُكرِمَهُ إلى النِّهاية، قَبلَ أن تَفتَرِقَ طُرُقُنا.

هو سَيَعودُ إلى الأرض.

وأنا، سَأَعودُ إلى المَنبَع — روحاً واعِيَة، سَليمَة، خالِدة.

إن كنتُ أَروي كلَّ هذا اليَوم، فَلَيسَ لِأَنقُلَ مَعرِفة، ولا مَنهَجاً. بَل لِأَشهَد. لِأَقولَ ما هو الأَمرُ حَقّاً — من دونِ كَذِب، من دونِ تَزيين، من دونِ وُعود، من دونِ تَكَلُّف. لأنّ كَثيرين، أَعلَم، يَعبُرون شَيئاً لا يَعرِفون كيف يُسَمّونَه. طاقَةٌ تُحَرِّك، تَكسِر، تُطَهِّر، تُكَثِّف. وتَترُكُهم، أَحياناً، في وَحدةٍ عَميقة.

لم تَحدُث لي مُعجِزة. عَبَرَني شَيء. الفَرقُ كَبير.

« هذا التَخَلّي عن النِعمة، رَغمَ قَسوَتِه، لم يَكُن نِهاية. كان يُهَيِّئُني فَقَط لِتَغييرِ الأرض — ولِتَلَقّي نِداءٍ جَديد. »

سَكَتَت الكَلِمات. لكنَّ شَيئاً فيَّ ظَلَّ يُصغي، يَنتَظِر، يَستَعِدّ — لِما لا يَعرِفُهُ بَعدُ، ولِما كان يَعرِفُهُ مُنذُ الأَبَد.

⌘

الفصل السادس

نِداءُ الآياهواسكا

البرتغال، ٢٠١٥ ـــ طَقسُ الآياهواسكا

الضَّحكَة

كنتُ مَشلولاً في كَهفٍ مُظلِم، تُحيطُ بي الأَناكوندا.

كانت أَجسادُها الضَّخمَة تَتَمَوَّجُ في الهَواءِ الثَّقيل، وأَلسِنَتُها المَشقوقَة تَفِحُّ في العَتَمَة. عَرَفتُ أنّ الفِرارَ عَبَث. أَغمَضتُ عَينَيَّ وقَبِلتُ ما لا مَفَرَّ منه.

ثُمَّ حَدَثَ ما لم أَكُن أَتَوَقَّعُه.

تَزَيَّنَت الأَفاعي بِأَلوانٍ مُتَوَهِّجَة. ذابَ الكَهفُ في غابَةٍ وارِفَة. وظَهَرَت امرأَةٌ ذاتُ حُضورٍ مَهيب ـــ وَجهُها مَحجوب، وهالَتُها تُشِعُّ دِفئاً لم أَختَبِرْ مِثلَه من قَبل. ثُمَّ ضَحِكَت. ضَحكَةٌ خَفيفَةٌ، دافِئَةٌ، فيها مُداعَبَة ـــ كَخالَةٍ حَنونٍ تَستَقبِلُ ابنَ أُختِها بَعدَ غِيابٍ طَويل.

« أَخيراً، ها أنتَ. لَقَد سَمِعتَ النِّداء. »

تَلاشى كُلُّ تَوَتُّرٍ فِيَّ في لَحظَة. أَدرَكتُ، من دونِ أن يُقالَ لي، أنّي بِحَضرَةِ « الأمّ آياهواسكا » (Mère Ayahuasca) ـــ وأنّ

ما كُنتُ أَخشاهُ أَكثَرَ من كُلِّ شَيءٍ آخَر قد تَحَوَّلَ تَوّاً إلى أَعظَمِ مُعَلِّمي.

ولِكَي أَفهَمَ كيف وَصَلتُ إلى تِلكَ الغابَة، إلى ذلك الطَّقس، راكِعاً أَمامَ تِلكَ الضَّحكَة، عَلَيَّ أن أَعودَ بِضعَةَ أَشهُرٍ إلى الوَراء.

جَوابٌ في صَميمِ السَّعي

في عام ٢٠١٥، بَعدَ عَودَتي من هولندا إلى فرنسا، إثرَ فَترَةٍ طَويلَةٍ من العُزلَةِ والبَحثِ الداخِليّ، تَلَقَّيتُ من صَديقٍ قَريبٍ دَعوَةً لِلمُشارَكَةِ في خَلوَةِ آياهواسكا في البرتغال. بَدَت لي جَواباً مُباشِراً لِشَيءٍ كنتُ أَحمِلُه منذ سَنَوات — حاجَةٌ عَميقَةٌ إلى الإرشاد، إلى لِقاءٍ روحانيٍّ أَصيل، بَعيدٍ عن الوُعودِ الفارِغَةِ لِما يُسَمّى « العَصرَ الجَديد » (New Age) وأَوهامِهِ الباهِظَة.

خِلالَ تِلكَ الفَترَةِ الانقِطاعيّة، كُنتُ أَقرَأُ بِنَهَم — كتاباً في الأُسبوع. مُتَّصِلاً لَيلاً ونَهاراً بِمُنتَدَياتٍ دَوليّة، أَتَبادَلُ الحَديثَ بِكُلِّ اللُّغاتِ التي أُتقِنُها. كان فِيَّ شَوقٌ إلى تَعويضِ ما فاتَني — تِلكَ السَّنَواتُ التي رَفَضتُ فيها الدِّينَ والروحانيّةَ جُملَةً وتَفصيلاً. حينَ وَصَلتُ إلى البرتغال، كان مَزيجٌ من التَّفاني والحَماس يُحَرِّكُ كُلَّ ذَرَّةٍ فِيَّ.

انغِماسٌ يَهُزُّ الكِيان

قَبلَ الانضِمامِ إلى الخَلوَة، كان عَلَيَّ أن أُوَقِّعَ تَنازُلاً يَنُصُّ على أنّ المُنَظِّمين لن يَكونوا مَسؤولين عن أيِّ مُضاعَفاتٍ جَسَديّةٍ مُرتَبِطَةٍ بِالشَّراب. دَفَعَتني هذه الشَّكليّةُ إلى استِشارَةِ طَبيبي. مع أنّه لم يَكُن يَعرِفُ شَيئاً عن آياهواسكا، أَذِنَ لي — آخِذاً في الاعتِبارِ تَوازُني الذِّهنيَّ وإصراري. كان قد رافَقَني قَبلَ بِضعَةِ أَشهُرٍ، على مَضَض، في صِيامٍ مائيٍّ امتَدَّ ثَلاثَةَ أَسابيع. وحينَ بَهَرَتْهُ النَّتائج، قَبِلَ أن يَترُكَني أَستَكشِفُ حُدوداً جَديدَة.

كانت الخَلوَةُ تَمتَدُّ على أَربَعَةِ أَيّام. اليَومُ الأَوَّلُ مُكَرَّسٌ لِلتَّحضيرِ الذِّهنيِّ والجَسَديّ. اليَومانِ التاليانِ لِجَلسَتَينِ مُتَتالِيَتَين. واليَومُ الأَخيرُ يَطبَعُ العَودَةَ إلى الواقِعِ الاعتيادِيّ.

أَوَّلُ لِقاءٍ مع الغَيب

في الجَلسَةِ الأولى، كُنّا نَجلِسُ تَحتَ ظِلِّ الصَّنَوبَرِ المُسالِم، وحَرارَةُ الصَّيفِ تَلُفُّ المَكان. بَعدَ خَمسَ عَشرَةَ دَقيقَةً من شُربِ الشَّراب، سَرى في عُروقي اقشِعرارٌ جَليديّ — كَنَسغٍ يَجري في شَجَرَة. هذا البَردُ المُهَدِّئُ بِغَرابَة فَتَحَ البابَ على رُؤى مُتَوَهِّجَة. كانت زَخارِفُ هَندَسيّةٌ مُتَوَقِّدَة تَمُرُّ بِسُرعَةٍ دُوّامِيّة، وفَراشاتٌ ذاتُ أَجنِحَةٍ تَلمَع كانت تَطفو في الهَواء، تَنزِلُ بِرَشاقَةٍ تَنويميّة.

ثُمَّ — فَجأَةً — رَنَّ في ذِهني صَوتٌ مَألوف. صَوتُ أَبي. كان يَحمِلُ خِفَّةً جَعَلَتني أَنفَجِرُ بِالضَّحِك، كَأَنّي أَستَعيدُ جُزءاً منه نَسيتُه طَويلاً. وعلى الرَّغمِ من أنّ وَجهَهُ كان غائباً، كان حُضورُهُ مَلموساً — سَكينَةً، رِفقاً. هَزَّتني هذه الصِلَةُ غَيرُ المُنتَظَرَة.

مُواجَهَةُ الخَوف

كانت الجُرعَةُ الثانيَةُ أَكثَرَ كَثافَةً بِكَثير.

في غُضونِ دَقائق، وَجَدتُ نَفسي في غابَةٍ رَماديّةٍ مُتَفَحِّمَة. كانت الأَرضُ الرَّطبَةُ الموحِلَة تَلتَصِقُ بِقَدَمَيّ. شَدَّني مُنحَدَرٌ حادٌّ إلى داخِلِ كَهفٍ مُظلِم — مَتاهَةٌ من الأَنفاقِ الكَهفيّة. زادَ السُّكونُ الثَّقيلُ من حِدَّةِ العَتَمَة، فَأَيقَظَ في داخِلي خَوفي من الأَماكِنِ المُغلَقَة: ذِكرَياتِ طِفلٍ احتَجَزَهُ مِصعَدُ جَدَّيّ، ولَيالٍ طَويلَةٍ قَضَيتُها أَختَبِئُ من القَذائِفِ في الحَربِ اللُّبنانيّة.

خَرَجَت عِدَّةُ أَفاعي آناكوندا بِبُطءٍ من الأَنفاقِ المُحيطَة.

عَرَفتُ أنّ الفِرارَ عَبَث. أَغمَضتُ عَينَيّ. قَبِلت.

ثُمَّ جاءَت الضَّحكَة — والغابَة — والمَرأَةُ التي لم أَكُن أَستَطيعُ رُؤيَةَ وَجهِها، لَكِنَّ حُضورَها كان يَملأُ ما حَولَها دِفئاً ويَقيناً.

« أَخيراً، ها أنتَ. لَقَد سَمِعتَ النِّداء. »

دَرسٌ في الاستِسلام

من خِلالِ هذا اللِّقاء، فَهِمتُ أنّها كانت أَكثَرَ بِكَثير من مُجَرَّدِ شَخصيّةٍ روحيّة. أَرَتني أنّ الوُحوشَ التي نَخشاها كَثيراً ما تَكونُ شَظايا مَنسيّةً مِنّا — تَحمِلُ رَسائِلَ مَخبوءَةً تَحتَ أَشكالٍ مُقلِقَة. وحينَ نَستَقبِلُها، نَكتَشِفُ قُدرَةً على التَّحَوُّلِ لم نَكُن نَظُنُّها، ومَنبَعَ قُوَّةٍ داخِليٍّ لم نَكُن نَعرِفُ أنّنا نَحمِلُه.

في أَثناءِ هذه التَّجرِبَة، أَدرَكتُ أنّي لم يَعُد لي جَسَد. كنتُ وَعياً مَحضاً — جَوهَراً غَيرَ مادِّيّ — مَغموراً في تَواصُلٍ بِغِنىً يَفوقُ التَّصَوُّر مع ذَكاءٍ أَعلى. مع كُلِّ سُؤالٍ أَطرَحُه، كان الجَوابُ يَصِلُ فَوراً: بِالصَّوت، بِالفِكرَة، بِالصورَة، بِالإحساسِ الجَسَديّ، وكَأنّه مُتَدَفِّقٌ بِفَيضٍ هائلٍ من المَعرِفَة، يَنزِلُ دُفعَةً واحِدَة. كان كلُّ ذلك يَنبَثِقُ في آنٍ واحِد، في تَناغُمٍ تامّ، كَأنّ الكَونَ نَفسَهُ يُجيبُ الروحَ من دونِ مُرَشِّحات.

أَدرَكتُ حينَها أنّ هذا التَّواصُلَ يَتَكَيَّفُ مع كُلِّ شَخص. المؤمنُ يَرى أَشكالاً تَألَفُها عَقيدَتُه. وآخَرون — مِثلي — يَتَلَقَّونَ الجَوهَرَ عارياً، من دونِ زِينَة. هذه الكائناتُ العُليا لا تُعَلِّمُ بِالكَلِماتِ فَقَط. تُعَلِّمُ فينا.

ذِكرى سْوامي لاليتانَنده

في قَلبِ هذا اللِّقاءِ مع الأمّ آياهواسكا، تَخَلَّلَتْهُ رُؤيَةٌ قَصيرَةٌ مُضيئَة: « سْوامي لاليتانَنده » (Swami Lalitananda) — مُتَأَلِّقَة، صامِتَة — كَأنّها أَتَت لِتُحَيّيَني، ورُبَّما لِتَشكُرَني. شَعَرتُ بِصَدى امتِنانٍ، لأنّي قَبلَ سَنَوات، كُنتُ قد كَرَّستُ لها قِسماً كامِلاً في مُنتَدايَ القَديمِ لِلروحانيّة، أُشارِكُ فيه مَقاطِعَها وتَعاليمَها بِالإنجليزيّة.

كنتُ قد التَقَيتُها قَبلَ ذلك بِزَمَنٍ طَويل — في لبنان، في السادِسَةَ عَشرَة من عُمري، في مَعهَدِها لِليوغا. ذَهَبتُ إليه عَفويّاً، أَبحَثُ عن تَخفيفِ انحِناءِ عَمودي الفِقريّ.

كانت سْوامي لي بِمَثابَةِ أُمٍّ روحيّة. نَصائحُها الحَكيمَةُ الرَّحومَة طَبَعَتني — وكذلك المَرَّتانِ اللَّتانِ أَرشَدَتني فيهما إلى مُمارَسَةِ « داوتي كرِيَا » (Dhauti Kriya)، ذلك الطَّقسِ اليوغيّ لِتَطهيرِ الجِهازِ الهَضميّ: شُربُ ماءٍ فاتِرٍ مَملوحٍ قَليلاً، مع بِضعِ قَطَراتٍ من الحامض، ثُمَّ القِيامُ بِسِلسِلَةٍ من الحَرَكاتِ لِتَنظيفِ الجِهازِ الهَضميّ كاملاً، حتى يَخرُجَ الماءُ نَقيّاً.

شَرَحَت لي أنّ هذه المُمارَسَةَ تُطَهّرُ الجَسَدَ وتُهَدّئُ الذِّهن، فَتُعيدُ الخِفَّةَ والصَّفاءَ الداخِليّ.

ظُهورُها أَثناءَ تَجرِبَتي مع آياهواسكا كان كَإشارَة ـــ حُضورٌ أُموميٌّ لَطيف، يَصِلُ ماضيَّ بِدَربي الروحيّ. تَذكيرٌ بِالنَّسَبِ غَيرِ المَرئيِّ الذي يَربِطُ المُعَلِّمين والمُرشِدين ومَن يُلهِمونَهُم عَبرَ الزَّمَن.

الدِّماغُ: واجِهَةُ الوَعي لا مَصدَرُه

في عَصرٍ تَهيمِنُ عَلَيهِ المادِّيَّةُ العِلميّة ـــ حيثُ يُختَزَلُ الوَعيُ غالِباً إلى نِتاجٍ ثانَويٍّ لِلنَّشاطِ العَصَبيّ ـــ تَستَحِقُّ فَرَضيّةٌ أُخرى أن تُطرَح. لا بِوَصفِها حَقيقَةً مُطلَقَة، بَل بِوَصفِها نافِذَةً تَنفَتِحُ على السِّرّ: ماذا لو لم يَكُن الدِّماغُ مُوَلِّدَ الوَعي، بَل واجِهَتَه؟ لا المَصدَرَ، بَل أَداةَ تَجَلِّيه؟

الوَعيُ ـــ بَعيداً عن أن يَكونَ وَهماً مَولوداً من القِشرَةِ الدِّماغيّة ـــ قد يَكونُ حَقلاً غَيرَ مَحَلِّيّ، يوجَدُ مُستَقِلّاً عن الجَسَد. يَعبُرُ الدِّماغَ كَما يَعبُرُ النورُ زُجاجاً مُلَوَّناً، فَيَتَلَوَّنُ بِتاريخِنا وإدراكاتِنا. فَما نُسَمّيه « فِكراً » لَيسَ إلّا انعِكاساً، شَظَوِيّاً في أَغلَبِ الأَحيان، لِذَكاءٍ أَوسَع ـــ لِمَنبَعٍ جَوهَريٍّ يَتَجاوَزُ الأَبعاد.

تَجارِبُ بِعَينِها تَدعَمُ هذه الرُّؤيا: حالاتُ الوَعيِ المُتَغَيِّرة ـــ سَواءٌ استُحضِرَت بِالآياهواسكا، أم بِالتَّأَمُّلِ العَميق، أم بِالتَّنويم، أم بِالنَّشوَةِ الصوفيّة ـــ تَفتَحُ سَبيلاً إلى مُستَوَياتِ إدراكٍ يَتَعَذَّرُ الوُصولُ إليها بِغَيرِها. وإذا كانَ المَوتُ مُجَرَّدَ انقِطاعٍ لِلصِّلَةِ البيولوجيّةِ بِالجَسَد، فَلَيسَ ثَمَّةَ ما يُثبِتُ أنّ إشارَةَ الوَعيِ تَنطَفِئ هي

الأُخرى. قد تَستَمِرّ — في مَكانٍ آخَر. ورَفضُ هذه الفَرَضيّةِ لأنّها تَفلِتُ من أَدَواتِنا، أَشبَهُ بِنَفيِ وُجودِ الرّيحِ لأنّنا لا نَستَطيعُ حَبسَها في عُلبَة.

الدِّماغُ لَيسَ مِصباحاً يُضيءُ العالَم. هو نافِذَةٌ مُوارَبَة على سَماءٍ لا نَكادُ نَلمَحُ لانِهائيَّتَها.

والواحِدُ يَخلُقُ لِيَتَذَكَّر؟

لِماذا يُغامِرُ الواحِدُ — الكامِلُ، غَيرُ المُجَزَّأ، الذي لا يَنقُصُهُ شَيء — بِخَلقِ هذه المُحاكاة؟ لِماذا هذا اللَّعِبُ بِالظَّواهِر، بِالتَجَزُّؤ، بِالنِّسيان؟

ما يَنبَثِقُ، في الصَّمتِ الذي يَعقُبُ بَعضَ الرُّؤى، لَيسَ جَواباً مَنطِقيّاً بَل بَداهَةً ناعِمَة: الواحِدُ لا يَخلُقُ عن نَقص، بَل عن فَيض. لَيسَ تِمثالاً مُتَجَمِّداً في الكَمال. هو حَيّ. يَهتَزّ. يَرقُصُ مع ذاتِه. يَلعَب. يَحلُم.

من دونِ انعِكاس، لا يَعرِفُ الوَعيُ نَفسَه. يَتَجَلّى في مَلايينِ الحالاتِ والصُّوَرِ والتَّجارِب. كلُّ عالَم، كلُّ كائِن، كلُّ بُعدٍ — مَرئيٍّ أو لامَرئيّ — يَصيرُ وَجهاً من أَوجُهِ بَلّورَةٍ واحِدَة، تَدورُ على نَفسِها لِتَتَأَمَّلَها من كلِّ زاوِيَة.

عِندَها، ما كانَ يَبدو عَبَثاً يَكتَسِبُ مَعنىً جَديداً ـــ حتى المِحنَة، حتى الحَرب، حتى النِّسيان. لا حَوادِثَ عابِرة، بَل تَوَتُّراتٌ ضِمنَ كائنٍ حَيٍّ أَوسَع. شَهيقٌ كَونيّ، وزَفيرٌ، ثُمَّ شَهيقٌ من جَديد.

وماذا لو كانَ كلُّ هذا لَيسَ سِوى فِعلِ حُبٍّ ـــ واسِعٍ إلى حَدِّ أن يَقبَلَ ضَياعَ نَفسِه، وذَوَبانَه، وعُبورَهُ كلَّ الأَوهام ـــ لِمُجَرَّدِ أنّه في مَكانٍ ما، يَكفي نَفَسٌ واحِد، أو دَمعَة، أو نَظرَةٌ إلى السَّماء، لِتُذَكِّرَهُ بِما هو؟

عَودَةٌ إلى المُحيط

كَشَفَت لي الأمُّ آياهواسكا حَقيقَةً ذاتَ مَدىً مُذهِل ـــ تَكادُ تَكونُ غَيرَ مُحتَمَلَةٍ لِلقَلبِ البَشَريّ، لَكِنَّها مُحَرِّرَةٌ لِلروح:

« أُمُّكَ، كَكُلِّ ما تَحسَبُ أنّكَ فَقَدتَه، صورَةٌ زائِلَةٌ من الواحِد. لم تَترُكْكَ يَوماً. لم تَنفَصِلْ عَنكَ يَوماً. كانت الواحِدَ يَعتَني بِكَ من خِلالِ وَجهٍ تَستَطيعُ أن تُحِبَّه. »

ما كنتُ أَخشى فَقدَه كان في الواقِعِ وَهماً مُقَدَّساً ـــ صورَةً مُؤَقَّتَةً لِحُبٍّ لانِهائيّ. لا « زائِفَةً » بِالمَعنى السَّطحيّ، بَل رَمزيّة، عابِرَة، اهتِزازيّة. حَقيقَةٌ مَسرَحَةٌ كي يَتَذَوَّقَ الحُبُّ نَفسَه عَبرَ الفِراق، الفَقد، العَودَة.

حتى الأمُّ آياهواسكا نَفسُها قالَت لي، في هذا الإيحاءِ الأَخير:

« لَستُ كِياناً مُستَقِلّاً. أنا قِناعٌ رَحومٌ مِن أَقنِعَةِ الواحِد — كَكُلِّ الأَدِلَّةِ، كُلِّ الأَرواح، كُلِّ الصُّوَرِ الإلهيّةِ التي تُلاقيها. »

أَطلَقَ هذا الإدراكُ في داخِلي سَلاماً عَميقاً مَمزوجاً بِالدُّموع. تَحَوَّلَ الحِدادُ إلى مَوجَةٍ أَوسَع: الاعتِرافُ بِأنّ لا شَيءَ يَموت، كلُّ شَيءٍ يُعادُ تَدويرُه، كلُّ شَيءٍ يَرجِعُ إلى الواحِد.

ما كان القُدَماءُ يُسَمّونَه « مايا » (Māyā) — بَعيداً عن كَونِهِ مُجَرَّدَ خِداع — هو لَعِبٌ مُقَدَّسٌ يَكونُ فيه حتى الأَلَمُ مَوجَةً من الحُبِّ المُطلَق. وإن كنتُ أَبكي أُمّي، فَلَم يَعُد ذلك على ما أَحسَبُني فَقَدتُه، بَل على الجَمالِ اللانِهائيِّ لِصِلَةٍ أَبَديّةٍ اتَّخَذَت شَكلاً بَشَريّاً لِتُعَلِّمَني الحُبّ. اليَوم، أَعلَمُ أنّها عادَت إلى المُحيط، وأنّها تُكَلِّمُني في الرِّيح، في الطُّيور، في الصَّمت — وحتى من خِلالِ هذه الكَلِماتِ التي أَكتُبُها.

« أنا قَطرَةٌ تَذكُرُ المُحيط.

وهذا هو الصَّحوُ الحَقيقيّ. »

أَصداء

ما عِشتُه في تِلكَ الغابَةِ في البرتغال لم يَكُن مُنعَزِلاً. كُلَّما عُدتُ إليه، في الأَسابيعِ والأَشهُرِ التَّالية، كنتُ أَجِدُ أَصداءَه في كلِّ مَكان — في تَقاليدَ وُلِدَت بَينَها قُرونٌ وقاراتٌ مُختَلِفَة، وكُلٌّ منها يَصِفُ السِّرَّ نَفسَهُ بِلُغَةٍ مُختَلِفَة.

يَهمِسُ « تاو تي كينغ » (Tao Te King) بِأنّ الكَونَ لا يُغلَب، بَل يُترَكُ ليَعبُر. الحَكيمُ لا يَطلُب — هو يَتَّسِق. يَتَوَقَّفُ عن المُقاوَمَة ويَترُكُ التَّيّارَ يَسكُنُه. « وو وي » (Wu Wei) — الفِعلُ بِلا جُهد. في رُؤايَ، لم أَعُد بِحاجَةٍ إلى أن أَفهَم. صِرتُ التَّيّارَ نَفسَه، حُرّاً من انتِظارٍ ومن خَوف.

تُعَلِّمُ « الأَدفايتا فيدانتا » (Advaita Vedānta) أنّ خَلفَ كلِّ الصُّوَر، لا توجَدُ سِوى حَقيقَةٍ واحِدَة: الوَعي. أَدفايتا — اللاثُنائيّة. « لَستَ ما تَظُنُّ أنّكَ هو. أنتَ ما يَرى كلَّ الظُّنونِ تَمُرّ. » حينَ سَأَلتُ « لِماذا كلُّ هذا؟ »، لم يَكُن الجَوابُ تَفسيراً، بَل بَداهَةً صامِتَة: الواحِدُ يَنسى نَفسَهُ لِكَي يَتَعَرَّفَ عَلَيها.

التَّصَوُّفُ لا يَسعى إلى تَفسيرِ الله، بَل إلى الذَّوَبانِ فيه في سُكرِ حُبٍّ خالِص. « الحُبُّ ماءُ الحَياة. والعاشِقُ روحٌ تَلتَهِب. » في قَلبِ رُؤايَ، شَعَرتُ بِهذا اللَّهيبِ نَفسِه. حتى في الوَهم، حتى في الأَلَم — اهتِزازٌ ناعِمٌ مُلِحٌّ يُذَكِّرُني بِأنّ كلَّ شَيءٍ صِلَة، وكلَّ شَيءٍ عَودَةٌ إلى المَحبوب.

أمّا البوذيّةُ فَتُعَلِّمُ أنّ المُعاناةَ تَولَدُ من التَعَلُّق، من وَهمِ الدَّيمومَة، من جَهلِ طَبيعَتِنا الحَقيقيّة. مع الأمّ آياهواسكا، رَأَيتُ أنّ المَوتَ نَفسَهُ لَيسَ سِوى عُبور. « الخَواءُ صورَةٌ، والصورَةُ خَواء. » في هذه الرَّقصَةِ بَينَ الفَراغِ والامتِلاء، اِستَعَدتُ سَلامَ البوذا.

عُبوري هذه الرُّؤى، ثُمَّ إنارَتُها بِضَوءِ هذه التَّقاليدِ الأَربَع، أَرَتني أنّ دُروباً وُلِدَت في أَزمِنَةٍ وقاراتٍ مُختَلِفَة تَتَكَلَّمُ السِّرَّ نَفسَه. لا تَتَناقَض؛ بَل تَتَكامَل ـــ أَربَعَةَ انعِكاساتٍ لِنورٍ واحِد.

رَقصَةُ الواحِد

في صَمتِ الآياهواسكا المُهتَزّ، سَأَلتُ: « لِماذا؟ لِماذا خَلقُ كلِّ هذا ـــ الوِلاداتُ والمَوت، العَوالِمُ والحُروب، الأَفراحُ والدُّموع؟ لِماذا كلُّ هذا المَسرَح، ونَحنُ أَصلاً اللانِهائيّون؟ »

عِندَها أَجابَني صَوت ـــ ناعِم، شاسِعٌ كَالأَبَديّة ـــ من دونِ كَلِمات:

« لأنّ هكذا أَكون. لا أَخلُقُ عن حاجَة، بَل عن طَبيعَة. أَفيضُ من ذاتي كَما تُشِعُّ الشَّمسُ بِلا جُهد، كَما يُنجِبُ المُحيطُ أَمواجاً ولا يَنفَكُّ يَكونُ مُحيطاً. »

أَرَتني الكَونَ كَمِرآةٍ مُحَطَّمَةٍ إلى مَلايينِ الشَّظايا، كلُّ شَظِيَّةٍ تَعكِسُ الكلَّ من زاوِيَةٍ مُختَلِفَة.

« فيكَ، أَتَأَمَّلُ ذاتي. في كلِّ نَجمَة، في كلِّ نَفَس، في كلِّ دَمعَة، أَكتَشِفُ نَفسي مَرَّةً بَعدَ مَرَّة. »

فَهِمتُ حينَئذٍ: الواحِدُ لَيسَ ساكِناً. يَرقُص. يَلعَب. يَتَجَلّى في مَلايينِ الصُّوَرِ لِيُجَرِّبَ نَفسَهُ في عَدَدٍ لانِهائيٍّ من المَرايا.

وفي هذا اللَّعِبِ المُقَدَّس، لَسنا غُرَباء. نَحنُ أَمواجُ هذا البَحرِ الذي لا شاطِئَ له، العُيونُ التي يَرى بِها، الأَيدي التي يَلمَسُ بِها، القُلوبُ التي يَشعُرُ بِها.

لم يَكُن ثَمَّةَ انفِصالٌ أَبَداً. كلُّ ما هو كائِن ـــ المَجَرّاتُ الحَلَزونيّة، الوِلاداتُ المَجهولَة، النِّهاياتُ الصامِتَة ـــ لَيسَ سِوى نَفَسِهِ يَتَجَلّى، أَبَدِيَّتِهِ تَحلُمُ لِكَي تَستَيقِظَ بِشَكلٍ أَفضَل.

عِندَها لم تَعُد لي أَسئِلَة. لأنّي في تِلكَ اللَّحظَةِ المُعَلَّقَة، عَرَفتُ أنّي لم أَتَوَقَّفْ يَوماً عن أن أَكونَ هو.

قَناةٌ غَيرُ مُتَوَقَّعة

لم تَتَوَقَّفِ التَّجرِبَةُ عِندَ هذا الحَدّ.

حتى بَعدَ أن فَتَحتُ عَينَيّ، كانت آثارُ الآياهواسكا تَستَمِرّ بِشِدَّةٍ مُربِكَة. بَينَما كان مُعظَمُ المُشارِكين يَعودون تَدريجيّاً إلى حالَةٍ طَبيعيّة، بَقيتُ في فَضاءٍ بَرزَخيّ ـــ بَينَ عالَمَين. اِرتَفَعَ في حَلقي إحساسٌ غَريب، كَأنّ شَيئاً يَنبَغي له أن يَتَكَلَّم ـــ من دونِ رَغبَتي، من دونِ سَيطَرَتي. حاوَلتُ أن أَكبَحَ هذا التَّدَفُّق. عَبَثاً. خَرَجَت من فَمي أَصواتٌ، مُبهَمَةٌ في البِدايَة، ثُمَّ كَلِماتٌ ـــ واضِحَة، قَوِيَّة ـــ تَنبَعِثُ من طاقَةٍ لَيسَت لي. لم يَكُن صَوتي. لم تَكُن كَلِماتي.

كائنٌ أُنثَويٌّ ـــ مَجهولٌ، لَكِنَّه ذو حُضورٍ مَهيب ـــ قد سَكَنَ جَسَدي لِيُبَلِّغَ تَحذيراً لِلحاضِرين. كانَت تَتَكَلَّمُ بِالفَرَنسيّة، بِسُلطَةٍ

وحَزمٍ شِبهِ خَشِنَين، لم أَعرِفهُما في نَفسي من قَبل. كانَت تَجعَلُني أُؤَدّي حَرَكاتٍ طُقوسيّةً عِندَ مُستَوى الصَّدر، تَستَحضِرُ شَعائرَ قَديمَةً أَكثَرَ مِمّا تَستَحضِرُ تَقليداً أَعرِفُه. عَلِمتُ في ما بَعدُ أنّ لِهذه الظاهِرَةِ اسماً: « الاستِقبالُ القَناتيّ » (channeling). لم تَكُن هي الأمَّ آياهواسكا، ولا شَخصيّةً مُطَمئنَة — كانَت شامانَة، رُبَّما حارِسَة، جاءَت لِتُعيدَ بَعضَهُم إلى الجادَّة.

كنتُ مَذهولاً. وخَجِلاً أَيضاً، لأنّ قُوَّةً كَهذه عَبَرَتني أَمامَ الآخَرين، وكَثيرٌ مِنهُم لا يَفهَمُ الفَرَنسيّة. ثُمَّ، بِنَفسِ السُّرعَةِ التي جاءَت بِها، انسَحَبَ الكائِن.

غَمَرَتني مَوجَةُ مَشاعِر — مَخلوطَةٌ بِنَدَمٍ عَميقٍ لِمُغادَرَتي ذلك الواقِعَ الآخَرَ والعَودَةِ إلى هذه الكَثافَةِ الساحِقَة. كان جَسَدي ما زال يَرتَجِف. اِهتِزازٌ عَصَبيٌّ يُحَرِّكُ كَتِفي اليُمنى، كَصَدىً أَخيرٍ لِذلك العُبورِ غَيرِ المُنتَظَر.

حينَ عُدتُ كامِلاً إلى نَفسي، شَعَرتُ بِضَغطٍ حادٍّ في صَدري — كَأَنَّ جَوهَري غَيرَ المادِّيِّ يَجِدُ صُعوبَةً في العَودَةِ إلى غِلافِهِ الجَسَديّ. مع مُرورِ الوَقت، تَعَرَّفتُ على ما يُسَمّى عادَةً « تَجرِبَةُ الخُروج من الجَسَد » (Out of Body Experience – OBE) — وأَوصافُها تُطابِقُ، عن قُربٍ وأَحياناً تَطابُقاً شِبهَ كامِل، رِواياتِ تَجارُبِ الاقتِرابِ من المَوت.

نَظرَتي إلى المَوت

أَتَساءَلُ مُنذُ زَمَنٍ طَويل: هَل يوجَدُ المَوتُ حَقّاً؟ هَل هو نِهايَة، أم مُجَرَّدُ وَهمٍ مُسَجَّلٍ في دَورَةِ عُبورِنا الأَرضيّ؟

من اقتَرَبوا منه يُؤَكِّدونَ بِوُضوح: لَيسَ الوَعيُ ما يَنطَفِئ، بَل الجَسَدُ المادِّيُّ فَحَسب ـــ هذه المَركَبَةُ الهَشَّةُ التي نَحتاجُها لِنَجوبَ طُرُقَ الكَثافَةِ المادِّيّة. من دونِها، لا تَستَطيعُ الروحُ أن تَتَذَوَّقَ المادَّة، ولا مِحَنَها، ولا لِقاءاتِها، ولا خَياراتِها.

فَماذا يَصيرُ إذن مَن نُسَمّيهِم « المَوتى »؟ في نَظَري، هم لا يَختَفون. هم يُتابِعون طَريقَهُم في بُعدٍ آخَر ـــ لامَرئيٍّ لِعُيونِنا، لَكِنَّه مُوازٍ لِبُعدِنا، وحَقيقيٌّ مِثلُه تَماماً.

رَحيلُ أُمّي أَقنَعَني بِذلك. ذاتَ مَساء، خاوياً، تَسحَقُني وَطأَةُ الغِياب، أَدرَكتُ عِطراً مَألوفاً يَنتَشِرُ في الغُرفَة ـــ كَأَنَّه عِطرُها. آسِراً، مُطَمئناً، كان يُسَكِّنُ النَّفسَ المَجروحَةَ التي كانَتها نَفسي، من دونِ سَبَبٍ ظاهِر. لا حُلماً، ولا هَلوَسَة: حُضوراً ـــ ناعِماً، مُهَدِّئاً ـــ كَأَنّها أَتَت لِتَقولَ لي بِبَساطَةٍ إنّها هُنا. وفي لَحَظاتٍ أُخرى، لَمسَةٌ خَفيفَةٌ على رَأسي ـــ قَوِيَّةٌ ما يَكفي لِتَجعَلَني أَلتَفِتُ عن شاشَةِ كمبيوتري لِأَتأَكَّدَ مَن يَقِفُ خَلفي.

لا أَستَطيعُ أن أُثبِتَ ذلك. لَكِنّي لا أَستَطيعُ أن أَنفيَهُ أَيضاً. مُنذُ ذلك الحين، لم أَكُفَّ عن استِكشافِ هذه الأَلغاز ـــ لا هَرَباً من أَلَمِ

فَقدِها، بَل فَهماً لِلخَيطِ غَيرِ المَرئيّ الذي يَربِطُ الأَحياءَ بِالمَوتى. خَيطٌ لا يَستَطيعُ أَيُّ شَيء، ولا حتى المَوت، أن يَقطَعَه.

مُنعَطَفٌ روحيّ

في أَعقابِ هذه الخَلوَة، تَغَيَّرَت نَظرَتي إلى الإلهيّ تَغَيُّراً جَذريّاً. لم يَعُد اللهُ في نَظَري كائناً ذا صورَةٍ بَشَريّة، بَل جَوهَراً لانِهائيّاً وثابِتاً — حَقلاً من الإمكاناتِ مِنه يَنبَثِقُ كلُّ شَيءٍ ويَتَعايَش. قَرَّبَتني هذه التَّجرِبَةُ من الخالِق — لا بِالمَعنى الدِّينيّ، بَل عَبرَ روحانيّةٍ شَخصيّةٍ كَونيّة، مَطبوعَةٍ بِالبَساطَةِ والصِّدق.

عَلَّمَتني أنّ الحُرّيَّةَ الحَقيقيّةَ تَكمُنُ في القَبول. وأنّ الحِكمَةَ تَأتي من القُدرَةِ على الاستِسلامِ لِلمَجهولِ بِثِقَة. وأنّ كلَّ مِحنَة، مَهما اشتَدَّت، لها دَورٌ تَلعَبُهُ في تَطَوُّرِ الوَعيِ الجَماعيّ.

كانَت دَعوَةً إلى أن أَرى ما وَراءَ الظَّواهِر، وأَن أَحتَضِنَ زَوالَ الأَشياء، وأَن أَعتَرِفَ بِترابُطِ كلِّ شَيء.

« آهو! » (Aho!)

⌘

الفصل السابع

القُدُراتُ المنسيّة

بوردو، ٢٠١١–٢٠١٩ ـــ سَنَواتُ التَفَرُّغ

كُلَّ سَبتٍ صَباحًا

طِوالَ ثَلاثِ سَنَواتٍ، في كُلَّ سَبتٍ صَباحًا، كُنتُ أُوقِفُ المَطَر.

أُريدُ أن أَكونَ دَقيقًا في هذه العِبارة، لأنّي أَعرِفُ كيفَ تَقَعُ على المَسامِع. لا أَتَكَلَّمُ مَجازًا. كُنتُ أَقِفُ عِندَ نافِذةِ شُقَّتي الصَّغيرةِ في بوردو، أُراقِبُ سَيلَ المَطَرِ المُنهَمِرِ في الخارِج، وأَقضي دَقيقةً واحِدة ـــ لا أَكثَر ـــ أَتَخَيَّلُ فيها سَماءً زَرقاء، ورَصيفًا دافِئًا، ومَشيًا في الجَفافِ حتّى سوقِ « الكابوسان » (Les Capucins)، على بُعدِ رُبعِ ساعة. ثُمّ أُغلِقُ البابَ خَلفي.

ويَتَوَقَّفُ المَطَر.

دونَ استِثناء.

كان جيراني قد لاحَظوا الأَمرَ قَبلَ أن أَتَكَلَّمَ عنه. اعتادوا أن يَرصُدوني من شُرُفاتِهم. في كُلِّ مَرّة، يَتَوَقَّفُ المَطَرُ ساعةَ

خُروجي. كانوا يَبتَسِمون، بقَليلٍ من الحَيرة: « والله إنّك محظوظ... »

تابَعتُ ذلك ثَلاثَ سَنَوات. حتّى الصَّباحِ الذي أَوقَفَني فيه إدراكٌ أَخلاقيٌّ بَغتةً: هل لي الحَقُّ في تَحويلِ المَطَرِ لِراحَتي وَحدي، فيما الأرضُ والنَّباتاتُ والكائِناتُ الحَيَّةُ من حَولي بحاجَةٍ إليه؟ تَوَقَّفتُ في ذلك اليوم. لا خَوفًا ـــ بل احترِامًا. لأنّ هذه القُدرَة، أيًّا كانَت، لم تَكُن مِلكًا لي. كانَت تَعبُرُني فحَسب. وذلكَ شيءٌ مُختَلِفٌ تَمامًا.

يَتَناوَلُ هذا الفَصلُ ذلك الفَرق. القُدُراتِ التي نَحمِلُها دونَ أن نَدري. الأَسبابَ التي جَعَلَتنا نَنساها ـــ والكَيفيّةَ التي يُمكِنُنا بها أن نَتَذَكَّر.

ذاكِرَةٌ لا مَوهِبَة

في الكائِنِ البَشَريّ حَقلٌ شاسِعٌ من الوَعي ـــ لَطيفٌ، طالَما أُغفِلَ، وأُنكِرَ أحيانًا، لكنّه حاضِرٌ على الدَّوام. ما أَستَعِدُّ لِوَصفِه ليسَ فيه شيءٌ خارِقٌ للعادة. هو تَذكير. عَودَةٌ إلى شيءٍ كَونيٍّ نَحمِلُه جَميعًا في داخِلِنا. لا امتِيازٌ، بل ذاكِرَةٌ نائِمة.

أَذكُرُ يَومًا أَرسَلتُ فيه، بمُجَرَّدِ نِيَّةٍ ذِهنيّة، رِسالةً صامِتةً إلى أَربَعةِ أَصدِقاءَ بَعيدين. في غُضونِ ساعاتٍ قَليلة، تَواصَلَ ثَلاثَةٌ مِنهم مَعي تِلقائيًّا ـــ وأَفصَحَ الرّابِعُ لاحِقًا أنّه فَكَّرَ فيَّ في اللَّحظةِ ذاتِها، لكنّه لم يُبادِر بِدافِعِ الكَسَل.

ولم أَكُن قد قُلتُ شيئًا لِأَحَد.

أَرَتني هذه التَّجرِبةُ ما لم يَعُد بمَقدوري إنكارُه: التَّخاطُرُ ليسَ خَيالًا. هو قُدرَةٌ طَبيعيّةٌ نَسيناها فحَسب.

« أَتُريدُ أن تَعرِفَ لِمَ تَشعُرُ بكُلِّ هذا ـــ لِمَ تَسمَعُ تلكَ الأَصوات، لِمَ يَهتَزُّ جَسَدُكَ دونَ سَبَبٍ ظاهِر؟

ـــ نَعَم. ولِمَ يَحدُثُ هذا لي أنا؟

ـــ لأنَّكَ تَذَكَّرت.

ـــ أَتَذَكَّرُ ماذا؟

ـــ ما كُنتَ تَعرِفُهُ مِن قَبل. لكنَّكَ نَسيتَه.

ـــ أَتَقصِدُ... أنَّنا نَعرِفُ جَميعًا في الحَقيقة؟

ـــ نَعَم. الحَدسُ، التَّخاطُرُ، السَّمعُ الباطنيّ، الرُّؤيَةُ الداخِليّة، الإدراكاتُ الطَّاقيّة، الأَحلامُ الواعِية، الهَواجِسُ الصّادِقة... ليسَت هذه مَواهِبَ مَوقوفةً على قِلَّةٍ مُختارة. هي قُدُراتٌ طَبيعيّة. تَغفو لدى الأَكثَريّة ـــ لكنّها تَنتَظِر، تَتَرَقَّب. »

لِماذا نُسِيَت هذه القُدُرات؟

مُنذُ الحَضاراتِ الأولى، أَظهَرَ الإنسانُ قُدُراتٍ لَطيفةً في الإدراك: الشّامانيّة، العَرّافون، الرُّؤى، حالاتُ الانخِطاف، الشِّفاءُ

الرّوحيّ. لم تَكُن هذه المُمارَساتُ هامِشيّة. كانَت في صَميمِ الحَياة — مُكَرَّمة، ومُقَدَّسةً في الغالِب.

لكن مع ظُهورِ العَقائِدِ الدينيّةِ المُؤَسَّسيّة، ثُمَّ مع هَيمَنةِ العَقلانيّةِ العِلميّة، حَدَثَ انزياح. ما كانَ يُرى ذاتَ يَومٍ طَبيعيًّا — أو إلهيًّا — صار يُوصَمُ بالخُرافة، أو الخَطَر، أو الاضطِرابِ النَّفسيّ. وانتَقَلَ هذا الكَبتُ الثَّقافيُّ من جيلٍ إلى جيل، عَبرَ أَبسَطِ العِباراتِ في الغالِب: « ما هذا إلّا خَيالُك. » « أنتَ تَحلُم. » « لا واقِعَ إلّا ما تَراهُ العَين. »

هذا الانفِصالُ ليسَ بَريئًا. لقد غَذّى مُجتَمَعًا مَقطوعًا عن ذاتِه — مُوَجَّهًا بكُلِّيَّتِه إلى الخارِج، نَحوَ الاستِهلاكِ والسُّلطةِ المادّيّةِ والسَّيطَرة. إنسانيّةٌ مَحرومةٌ من حَواسِّها العَميقة تَغدو هَشّة، لأنّها لم تَعُد تَعرِفُ كيفَ تُصغي. لا إلى هَمسِ قَلبِها، ولا إلى وَشوَشةِ العالَمِ غَيرِ المَرئيّ.

ومعَ ذلك، لا تَطلُبُ هذه القُدُراتُ سِوى أن تُوقَظ. ليسَت مَسألةَ سُلطة. هي مَسألةُ حُضور — للذاتِ، وللحَيّ.

التَّعتيمُ الكَبير

مُنذُ القُرونِ الأولى، هَمَّشَتِ التَّيّاراتُ الدينيّةُ والسِّياسيّةُ الكُبرى المُتَصَوِّفين، وحَظَرَتِ المَعارِفَ الباطِنيّة، وأَحرَقَتِ القابِلات — تلكَ النِّساءَ اللواتي حَمَلنَ مَعارِفَ مُتَوارَثة في الطِّبِّ النَّباتيّ،

والعِلاجِ الطَّاقيّ، وفي الدَّوراتِ الطَّبيعيّة. حارِساتُ الحِكمةِ الأُنثَويّة، مُعالِجات، نِساءُ-طِبٍّ في قَلبِ مُجتَمَعاتِهنّ. شَيطَنوا المُعالِجين. سَخِروا من الشّامانيّين.

لم يَكُن ذلكَ صُدفة. كان إرادةً مُتَعَمَّدة: قَطعُ الإنسانِ عن جَوهَرِه اللَّطيف.

لاحِقًا، أَحالَ العِلمُ العَقلانيُّ هذه القُدُراتِ إلى دُرجِ الهَلوَساتِ أو المُصادَفة. وأَكمَلَ التِّلفازُ، والمَدرَسةُ، والعَقائِدُ الاجتِماعيّةُ والدينيّةُ العَمَل. دَرَّبونا على الاعتِقادِ بأنّ حَواسَّنا الخَمسَ وعَقلَنا المَنطِقيَّ هي وَحدَها التي تَستَحِقُّ الوُجود.

مُجتَمَعٌ مَبنيٌّ على السَّيطَرةِ لا يَحتَمِلُ كائِناتٍ بَشَريّةً حُرّةً حَقًّا، مُستَقِلّةً، مُلهَمة. الفِكرُ الحُرّ، حينَ يَتَجَسَّد، يَغدو مُعدِيًا. يُساءِلُ النِّظامَ القائِم. مَن يُدرِكُ ما وَراءَ الحِجاب لا يَعودُ بحاجَةٍ إلى أن يُدارَ من الخارِج. وهُناكَ يَرتَجِفُ النِّظام.

نِسيانٌ مُقَدَّس؟

ومعَ ذلك — ماذا لو كانَ كُلُّ ذلك جُزءًا من اللُّعبة؟

أَعرَقُ التَّقاليد — من الآياهواسكا إلى الفيدا، ومن التَّصَوُّفِ إلى البوذيّة — تَتَحَدَّثُ جَميعُها عن حِجابٍ يَنبَغي اختِراقُه. التَّجَسُّد، في هذا المَنظور، رِحلةُ كائِنٍ لا مُتَناهٍ يَختارُ أن يَنسى نَفسَه في المادّة، ليَجِدَ نَفسَه على نَحوٍ أَعمَقَ عَبرَ يَقَظةِ القَلب. ما نَعيشُهُ ليسَ خَلَلًا في

الصُّنع. هو دَعوةٌ إلى استِعادَةِ مَواهِبِنا. مُكاشَفةٌ كَوكَبيّة. نِداءٌ للمُصالَحةِ مع طَبيعَتِنا المُتَعَدِّدةِ الأَبعاد.

القُدُرات، واحِدةً واحِدة

الحَدس ـــ الحِكمَةُ بلا تَفكير. ليسَ الحَدسُ رأيًا، ولا فِكرًا مَنطِقيًّا. هو مَعرِفةٌ مُباشِرة ـــ وَميضٌ، يَقينٌ داخِليٌّ يَأتي دونَ جَهد، وغالِبًا قَبلَ أيِّ تَأَمُّل. يَتَجَلّى عَبرَ أَحاسيسَ جَسَديّة: شَدٌّ في الحَنجَرة، انقِباضٌ في البَطن، وَخَزات. أو عَبرَ رُؤًى وَجيزةٍ لا يُمكِنُ تَبريرُها في تلكَ اللَّحظة. كُلَّما أَصغَيتَ إليه، صارَ أَوضَحَ وأَدَقّ. في التَّقاليدِ الرّوحيّة، يُربَطُ غالِبًا بِذَكاءِ الذات ـــ تلكَ الإرشاديّةُ الداخِليّةُ التي تَتَكَلَّمُ قَبلَ أن يَتَدَخَّلَ العَقل.

التَّخاطُر ـــ الفِكرُ ما وَراءَ الكَلِمات. اختَبَرتُهُ بنَفسي، ونَتائِجُهُ صادِمة. الفِكرُ ليس مَحصورًا في الدِّماغ ـــ هو يُبَثُّ كَموجة. حينَ يَتَناغَمُ وَعيانِ ـــ عاطِفيًّا، رُوحيًّا، ذَبذَبيًّا ـــ يَغدو نَقلُ المَعلوماتِ الذِّهنيّةِ مُمكِنًا. هو طَبيعيٌّ لَدى الحَيَوانات، والأَطفال، وبَعضِ النَّوائِم؛ ويَعودُ غالِبًا إلى الظُّهورِ عِندَ المُتَصَوِّفين، أو لَدى الشُّعوبِ الجُذور. وأَصدِقائي الأَربَعة الذين بَلَّغتُهم دونَ كَلِمة، يَظَلّونَ بالنِّسبةِ لي البُرهانَ الأَوضَحَ الذي بحَوزَتي.

الاستِبصار ـــ رُؤيَةٌ دونَ عَينين. ثَمّةَ مَن يُدرِكونَ النَّوايا، والطّاقات، بل صُوَرَ الآخَرينَ الذِّهنيّة. ليسَ ذلكَ مَوهِبةً مَوقوفةً

على قِلّة، بل قَناةً إدراكيّةً مُتاحةً في كُلِّ إنسان ـــ تَستَلزِمُ صَمتًا داخِليًّا، وتَأَصُّلًا، وإصغاءً غَيرَ ذِهنيّ. تُنَمّي التَّقاليدُ الشّامانيّةُ واليوغيّةُ والباطِنيّةُ هذه القُدُراتِ مُنذُ الأَزَل ـــ كانَت قَديمًا جُزءًا ممّا كانَ يُدعى بالفُنونِ المُقَدَّسة.

الاستِشعارُ المُسبَق ـــ الزَّمَنُ في حَلَزون. يَحدُثُ أنّ بَعضَ النُّفوسِ تَستَشعِرُ ما هو آت ـــ لا كيَقين، بل كنِداءٍ من المُستَقبَل. ليسَ ذلكَ عِرافة، بل حَدسًا بمَسارٍ زَمَنيٍّ مُحتَمَل، يُحَسُّ به على نَحوٍ عاطِفيٍّ، أو جَسَديٍّ، أو رَمزيّ. كَثيرًا ما يَحجُبُ هذا الإدراكَ القَلَقُ أو العَقل. ويَتَجَلّى بحُرّيَّةٍ أَكبَرَ في الأَحلام، والتَّأَمُّلات، وأَعماقِ الصَّمت.

القُدرَةُ على خَلقِ الواقِع ـــ الحَقلُ المُوَحَّد. حينَ نَفهَمُ أنّ الواقِعَ ليسَ خارِجيًّا، بل مَخلوقٌ بالشَّراكةِ مع وَعينا، نَدخُلُ في السِّيادةِ الداخِليّة. تَغدو الفِكرةُ، والعاطِفةُ، والنِيّةُ، والانتِباه قُوًى فاعِلةً في التَّحَوُّل. وهذا أَساسُ ما يُعرَفُ غالِبًا بقانون الانجِذاب ـــ لكن في نُسخةٍ أَعمَق، مَرتَبِطةٍ بذَبذَبةِ الكِيانِ أَكثَرَ من مُجَرَّدِ الإرادةِ الذِّهنيّة.

الرّوحُ والمادّة: التَجَلّي بالنيّة

بوردو، أَواخِرُ ٢٠١١ ـــ عَودَةٌ بَعدَ إحدى عَشرَةَ سَنَةً في هولندا

في أَواخِرِ عام ٢٠١١، بَعدَ أن غادَرتُ هولندا وعَقدًا من حَياةٍ مَحمومةٍ ومُنفَصِلَةٍ عن الجَسَد، دَفَعَني انبِعاثٌ داخِليٌّ إلى أن أُنشِئَ

مُنتَدًى خاصًّا بي، مَوقوفًا على قانون الانجِذاب والرّوحانيّات. لم أَعُد أَقنَعُ بِقِراءَةِ روايات الآخَرين الخارِقَة. أَرَدتُ أن أَعيشَ هذه التَّجارِب — أن أَختَبِرَها في جَسَدي، وفي رُوحي، وفي واقِعي.

في هذا السِّياقِ اكتَشَفتُ « السرّ » (The Secret) لِروندا بيرن (Rhonda Byrne)، عام ٢٠٠٨. أَطلَقَت قِراءَتُهُ في داخِلي وَميضَ تَعَرُّف — كأنّ قِطعةً ناقِصةً جاءَت أَخيرًا تُكمِلُ اللُّغزَ الباطِنيَّ الذي ظَلِلتُ أُحاوِلُ تَركيبَهُ مُنذُ الأَزَل. عَرَفتُ، بلا أَدنى ظِلِّ من شَكّ، أنّ هذا القانونَ حَقيقيّ.

كانَت تَجرِبَتي الأُولى المَلموسةُ طَلَبًا جَرِيئًا: العُثورَ على استوديو في بوردو، بَينَما لم تَكُن لي الإمكاناتُ المالِيّةُ ولا العَلاقات. حَدَّدتُ شُروطي بوضوح — مَسكَنٌ صَغير في قَلبِ المَدينة، تَخدُمُهُ مُواصَلاتٌ جَيِّدة، فاتِنٌ، دونَ أن أَدفَعَ شُهورًا مُقَدَّمًا، ودونَ المُرورِ بوَكالة. لا أَقَلَّ من ذلك.

كُنتُ أَتَخَيَّلُ هذا المَكانَ كُلَّ يَوم، وأَجعَلُهُ خَلفيّةَ شاشةِ كُمبيوتري — لَوحةَ تَصَوُّرٍ حَيّةً، حاضِرةً عِندَ كُلِّ فَتحٍ لِجَلسةٍ جَديدة. كُنتُ أَستَشعِرُ عاطِفةَ السُّكنى فيه، عاطِفةَ القِراءة، عاطِفةَ التَّأَمُّل.

وفي تلكَ الأَثناء، كانَت كُلُّ مَساعٍ تَبدو بِلا جَدوى. كُلُّ وَكالةٍ تُعلِنُ إيجاراتٍ خَياليّةً وشُروطًا تَنفيريّة. لَكِنّي بَدَلَ أن أَنهار، تَمَركَزتُ من جَديد. كُنتُ أَعرِفُ أنّ زَمَنَ الكَون ليسَ زَمَنَ الإنسان.

قَبلَ عَشَرةِ أَيّامٍ من انتِهاءِ إنذاري الداخِليّ، خَطَرَ ببالي صَديقُ مُراهَقةٍ بوردوليٌّ كُنتُ قد فَقَدتُ أَثَرَه. تَعَذَّرَ علَيَّ العُثورُ عليه — لَكِنّي تَذَكَّرتُ شَقيقَهُ المُعَلِّم. وحينَ تَواصَلتُ مَعه، عَلِمتُ أنّه كانَ في لبنان مُؤَقَّتًا، إثرَ وَفاةِ والِدَتِهما. وبَعدَ حَديثٍ يَفيضُ بالعاطِفة، أَخبَرَني أنّ استوديو يَملِكُهُ شَقيقُه — فارِغًا مُنذُ وَفاةِ والِدَتِهما — قد يُعرَضُ علَيّ.

في أَيّامٍ قَليلة، تَجَسَّدَ ما لا يُتَصَوَّر: استوديو في قَلبِ بوردو، مُتاحٌ على الفَور، بلا أَتعاب، بإيجارٍ زَهيد. كُلُّ شيءٍ يُطابِقُ ما صُغتُه. وبَقِيَت عَقَبةٌ أَخيرة: لم تَكُن في جَيبي قِرشٌ واحِدٌ لِبِطاقَةِ الطّائِرة، ولا لِلانتِقال، ولا حتّى لِدَفعِ الشَّهرِ الأَوّل.

في الأُسبوعِ ذاتِه، عَرَضَ علَيَّ صَديقٌ حَميمٌ، جاءَ يَزورُني، أن يُمَوِّلَ كُلَّ ذلك تِلقائيًّا. دونَ شَرط. مَدَّ يَدَهُ في اللَّحظةِ التي احتَجتُ فيها إلى يَد.

اكتَمَلَتِ المُعجِزة.

ثَلاثُ سَنَواتٍ من المَطَر

بوردو، ٢٠١١–٢٠١٤

في السَّنَواتِ التي تَلَت، تَعَمَّقَت هذه العَلاقةُ اللَّطيفةُ حتّى صارَت أَليفةً تَقريبًا في انتِظامِها.

حينَ كُنتُ أَخرُجُ لِأَتَبَضَّعَ في « الكابوسان » ـــ على بُعدِ رُبعِ ساعةٍ من استوديوي ـــ كانَت دَقيقةٌ واحِدةٌ من التَّصَوُّرِ تَكفي. دَقيقةٌ أُغلِقُ فيها عَينَيّ، أَرى السَّماءَ زَرقاء، والرَّصيفَ دافِئًا، وأَستَشعِرُ المَشيَ في الجَفاف. دَقيقةٌ أُغلِقُ بَعدَها البابَ خَلفي. ويَتَوَقَّفُ المَطَر.

كُلَّ سَبتٍ صَباحًا. أُسبوعًا تِلوَ أُسبوع. طَوالَ ثَلاثِ سَنَوات.

حتّى الصَّباحِ الذي تَوَقَّفتُ فيه ـــ لا لأنّ الأَمرَ تَوَقَّفَ عن العَمَل، بل لأنّي أَدرَكتُ أنّ ذلك ليسَ مَوضوعًا لِراحَتي وَحدي. لأنّ الأرضَ من حَولي لها حاجاتُها الخاصّة.

القُدرَةُ التي تَعبُرُكَ ليسَت كالقُدرَةِ التي تَملُكُها.

ما انتَهَيتُ إلى فَهمِهِ مع الوَقت، هو أنّ قانون الانجِذاب ليسَ عَقيدةً ولا خُرافة. هو قانونٌ كَونيّ، حَقيقيٌّ كحَقيقَةِ الجاذِبيّة. يَستَجيبُ لِذَبذَبَتِنا، لا لِكَلِماتِنا. لا يَحكُم. يَفعَل ـــ بشَرطِ أن تَكونَ رَغبَتُنا العَميقةُ مُتَآلِفةً مع تَرَدُّدِنا الداخِليّ. لا يُمكِنُنا أن نَجذِبَ حَدَثًا مُضيئًا إن كُنّا نَهتَزُّ على ذَبذَبةِ الخَوفِ أو الشَّكِّ أو النَّقص. وهُنا يَكمُنُ المِفتاحُ الرّوحيّ: رَفعُ الذَّبذَبة ليسَ تِقنيّة. هو طَريقةٌ في الكَينونة.

شَهادَةٌ شَخصيّة ـــ رِحلَتي مع المولدافيت

سبتمبر ٢٠١١ ـــ التَجرِبَةُ الأُولى

حَدَثَت لي تَجرِبةٌ بَديعةٌ مع « مولدافيتي » (Moldavite) فيما كُنتُ مُمَدَّدًا داخِلَ سي تي سكان (CT scan).

كُنتُ أَعرِفُ أنّ المولدافيت مَعروفةٌ بِحمايَتِها من الأَشِعّةِ السّينيّة، لَكِنّي لم أَكُن قد اختَبَرتُ ذلك يَومًا. كُنتُ قد خَضَعتُ لِفَحصَين رِئَويَّين في أَقَلَّ من ثَلاثةِ أَشهُر، وكان فَحصٌ ثالِثٌ مُقَرَّرًا. هذه المَرّة، قَرَّرتُ ببَساطة أن أَطلُبَ مِنها — ذِهنيًّا — أن تَحميَني من الإشعاع. لا أَكثَر.

حالَ دُخولي إلى الجِهاز، كُنتُ قد نَسيتُ تَمامًا أنّ الحَجَرَ في جَيبي — بسَبَبِ التَّوَتُّرِ بلا شَكّ. حينَ بَدَأَ المَسح، كانَت عَيناياَ مُغمَضَتَين. ثُمّ، في اللَّحظةِ ذاتِها التي أَخَذَت فيها الآلَةُ بالدَّوَران، ظَهَرَ ضَوءٌ أَخضَرُ ناعِمٌ ومُنتَشِر — اللَّونُ ذاتُه لِلمولدافيت — عِندَ مُستَوى الشاكرا السادسة. خِلالَ الدَّقائِقِ القَليلةِ التي دامَ فيها الفَحص، غَلَّفَني هذا الوَهَجُ الأَخضَر. مُمتِعٌ بشَكلٍ هائل. مُهَدِّئٌ في العُمق. وحالَ تَوَقُّفِ المَسح، اختَفى الضَّوء.

بَعدَ أَيّامٍ قَليلة، حَصَلتُ على النَّتائِج. كُلُّ شيءٍ على ما يُرام. حَساسيّةٌ بَسيطة — سَبَبُ سُعالي المُستَمِرّ.

التَجرِبَةُ الثانية

أَحمِلُ المولدافيت يَوميًّا حَولَ عُنُقي. لا أَنزِعُها إلّا لِلنَّوم، فأَضَعُها في صَدَفَةِ « سان جاك » (coquille Saint-Jacques)

لِأُطَهِّرَها وأُعيدَ شَحنَها. وإن نَسيتُ صُدفةً ونِمتُ بها، يَستَحيلُ علَيَّ إغماضُ عَينَيّ — السَّمعُ الباطنيُّ الذي تُثيرُهُ يَكونُ فَوريًّا: صُوَرٌ مُجَرَّدةٌ وأَشكالٌ تَظهَرُ أَمامَ عَينَيَّ المُغمَضَتَين، أَلوانٌ مَجهولةٌ تَمامًا، يَتَعَذَّرُ وَصفُها بلُغَتِنا. أَلوانٌ تَبدو وكأنّها لا تَنتَمي إلى بُعدِنا البَشَريّ.

ثَلاثَ مَرّاتٍ نَسيتُ أن أَنزِعَها قَبلَ النَّوم. ولا أَنصَحُ بذلك.

في كُلِّ مَرّة، وأنا مُمَدَّدٌ في العَتَمة، كُنتُ أَغدو ذا سَمعٍ باطنيٍّ حادّ. أَصوات، ضَجيج، أَصواتُ بَشَرٍ لَطيفة — كأنّها مَألوفة. هَمسٌ نابِضٌ لِحانةٍ غاصّة، لَكِنّه قادِمٌ من مَكانٍ آخَر. كانَتِ الأَصواتُ من الواقِعيّةِ بحَيثُ حاوَلتُ مِرارًا أن أُصغيَ بانتِباه، وأُحَدِّدَ اللُّغة. عَبَثًا. ولا كَلِمةٌ واحِدةٌ مَفهومة. بَدا أنّ هذه اللُّغةَ ليسَت لُغَتَنا — ليسَت أَرضيّة، بل قادِمةٌ من مَكانٍ مُختَلِفٍ تَمامًا.

في المَرّةِ الأُولى، حينَ نَزَعتُها أَخيرًا ووَضَعتُها على طاوِلةِ السَّرير، تابَعَتِ الأَصواتُ مُستَمِرّة. نَقَلتُها إلى كُرسيٍّ في الطَّرَفِ الآخَرِ من الغُرفة. كانَت لا تَزالُ هُناك، لَكِن أَضعَف. ولم يَعُد الهُدوءُ إلّا حينَ وَضَعتُها في غُرفةٍ أُخرى من المَنزِل — ومَعَهُ، عادَ النَّوم.

المولدافيت تَفتَحُ قَنَواتٍ غَيرَ مَرئيّة. تَخلُقُ جِسرًا بَينَ عالَمِنا وعالَمٍ آخَر — بكُلِّ رِفق — وإن كُنتُ لا أَستَطيعُ أن أَقولَ أَيُّ عالَم. مُنذُ اقتَنَيتُها، لم تَكُن لي مَعها أَيُّ مَشكلة، بل سَعادةٌ خالِصة. حينَ

أَنسى أن أَرتَديَها، يَظهَرُ أَحيانًا ضَوءٌ أَخضَرُ مُنتَشِرٌ عِندَ الشاكرا السادسة — كأنّه يُطَمئِنُني بأنّها لا تَزالُ هُناك، حَيثُما تَرَكتُها. أُحِبُّ هذه الحَجَرة. تُطَهِّر، تُوازِن، تَحمي. وتُتيحُ لي شَكلًا من التَّواصُلِ مع عالَمٍ آخَر — غَيرِ مُعادٍ، بل حامِلٍ لِلمَحَبّة.

والآن؟

اليومَ، يَتَكَشَّفُ الحِجاب. التَزامُناتُ تَتَضاعَف. الآياهواسكا، الأَحلام، الحَدسُ العَميق، الرَّوابِطُ غَيرُ المَرئيّة — كُلُّ هذا يَعودُ بقُوّة، كذاكِرَةٍ قَديمةٍ تَتوقُ إلى الاستيقاظِ من جَديد.

والبِشارة: لا شيءَ ضاع.

هذه القُدُراتُ مَوجودة، سَليمة، فينا. تَنتَظِرُ نَظرَتَنا المُحِبّة، وثِقَتَنا، ومُمارَسَتَنا. وقَبلَ كُلِّ شيء — إذنَنا الداخِليَّ بأن تُعَبِّرَ عن نَفسِها.

إعادَةُ اكتِشافِ قُدُراتِنا المَنسيّة أَشبَهُ بإعادَةِ تَعَلُّمِ المَشيِ حُفاةً على أَرضٍ تَعرِفُنا أَصلًا. ليسَ ذلك فَتحًا. هو عَودة — بَطيئة، حَنون، مُفرِحةٌ أَحيانًا، مُزَلزِلةٌ في الغالِب.

ليسَ الأَمرُ في أن تَصيرَ مُمَيَّزًا. الأَمرُ في أن تَعودَ كامِلًا.

وفي هذا الطريقِ نَحوَ إعادَةِ الوَصل، تَغدو كُلُّ تَجرِبَة، وكُلُّ حَدس، وكُلُّ صَمتٍ مَسكون، جِسرًا — نَحوَ الذات، نَحوَ الآخَر، نَحوَ غَيرِ المَرئيّ.

⌘

الفصل الثامن

شانيا

بوردو، ٢٠١٦ — نَشأةُ شانيا

الرَّجُلُ الذي غادَرَ حَلَبَةَ الرَّقص

« بوم فِستيفال » (Boom Festival)، البرتغال، ٢٠١٦.

عَشَراتُ آلافِ الناس. الموسيقى تَنبِضُ في كُلِّ الأرجاء. أكثرُ من مئةٍ وخمسينَ جِنسيّةً مُجتَمِعَةً في مَكانٍ واحد — تَرقُصُ، تُغَنّي، تَعيشُ جَنباً إلى جَنبٍ في أَجواءٍ من وَحدَةٍ عَميقة، تَكادُ تَكونُ غَيرَ مُحتَمَلَة.

وفي مَكانٍ ما من قَلبِ كُلِّ هذا، غادَرتُ حَلَبَةَ الرَّقصِ لِأَذهَبَ وأَستَمِعَ إلى مُحاضَرَةٍ حَولَ التَّغَيُّرِ المَناخيّ.

لَستُ مُتَأَكِّداً أنّي عَرَفتُ كيفَ أُفَسِّرُ ذلك في تِلكَ اللَّحظة. كانَ ثَمَّةَ ببَساطَةٍ شَيءٌ ما يَجذِبُني — بَعيداً عن الاحتِفال، نَحوَ الأَسئِلَةِ التي كانَت تُطرَحُ تحتَ شَمسٍ حارِقَة، في خَيمَةٍ تَجَمَّعَت فيها مَجموعاتٌ بِالإلحاحِ الصامِتِ نَفسِه. شُبّانٌ في مُعظَمِهم. أَعراقٌ،

أَديانٌ، أَعمارٌ، جِنسيّاتٌ مُختَلِفة — جَميعُهُم مُنحَنونَ إلى الأَمامِ حَولَ قَضيَّةٍ واحِدة: مُستَقبَلُ الكَوكَبِ الذي وَرِثوه.

كُنتُ أَنظُرُ إليهِم وهُم يَطرَحونَ أَسئِلَةً دَقيقَة. يَتَبادَلونَ أَفكاراً جَديدَة. يَتَحَدّونَ المُتَحَدِّثين. ثُمَّ يَلتَحِقونَ بِوَرَشٍ تَطبيقيّة. الرّوحُ التي كانَت تَسودُ تِلكَ الخَيمَة لم تَكُن رُوحَ مِهرَجان. كانَت رُوحَ أُناسٍ قَرَّروا أن يَأخُذوا شَيئاً ما على مَحمَلِ الجِدّ.

بَقيتُ هُناكَ طَويلاً.

شَيءٌ في داخِلي كانَ يَتَعَرَّفُ على ما أَراه — لا كَفِكرَة، بَل كَنِداء.

بَحثٌ كَونيّ

ما أَدهَشَني أَكثَرَ شَيءٍ في تِلكَ المُحاضَرات لم يَكُن جَسامَةَ المَشاكِلِ المَوصوفَة — مَهما بَلَغَت من إنذار — بَل وُضوحَ الذينَ كانوا يَصِفونَها. لم يَكونوا أَكاديميّينَ يُنشِدونَ أَبحاثَهُم أَمامَ قاعاتٍ فارِغَة. كانوا شَغوفينَ، راسِخينَ، عَلى عَجَلَة. كانوا يَتَكَلَّمونَ عن شُحِّ الماء، عن الاحتِباسِ الحَراريّ، عن انهِيارِ المَسكَنِ في مُتَناوَلِ النّاس — وكانوا يَتَكَلَّمونَ عن حُلول. حُلولٍ حَقيقيّة. حُلولٍ يُمكِنُ أن تُبنى، أن تُجَرَّب، أن تُتَشارَك.

خَرَجتُ من تِلكَ الخَيمَةِ بِإحساسٍ كُنتُ أَتَعَرَّفُ عَلَيه من لَحَظاتٍ أُخرى في حَياتي — الليلَةُ التي أَملَت فيها أُمّي وَصيَّتَها، الصَّباحُ

الذي سَمِعتُ فيه صَوتَ شري ماتاجي لأَوَّلِ مَرَّة، الصَّمتُ الذي تَلا طَقسَ الآياهواسكا.

إحساسٌ بِأنَّ شَيئاً ما يَبدَأ.

مُختَبَرُ الأفكارِ والأفعال

طِيلَةَ أُسبوعٍ كامِل، راقَبتُ هذا الجيلَ الجَديد — مُتَحَرِّراً، لَكِن واعِياً وَعياً استِثنائيّاً لِتَحَدِّياتِ زَمَنِه. كُنتُ أَستَشعِرُ طاقَةً جَماعيّةً قَويّة، رَغبَةً صادِقَةً في البِناءِ بَدَلاً من مُجَرَّدِ الاحتِجاج. لم يَكُن ذلك مُجَرَّدَ احتِفال. كانَ مُختَبَراً لِلأَفكارِ والأَفعال، عَرضاً حَيّاً لِما يُمكِنُ لِلإنسانيّةِ أن تُصبِحَه حينَ تَختارُ التَّعاوُنَ بَدَلاً من الانقِسام.

بَعدَ سَنَتَين، في عام ٢٠١٨، عُدتُ إليه — لا لِأَرقُصَ هذه المَرَّة، بَل لِأَنغَمِسَ كُلّيّاً في تِلكَ المُحاضَرات. بِحُلولِ ذلك الوَقت، كانَت « شانيا » (CHANYA) قد وُلِدَت في ذِهني.

رِسالَةٌ تَجَسَّدَت في اسم

فَرَضَ الاسمُ نَفسَهُ كَبَديهيّة. شانيا — اسمٌ يَعني « الإيجابيّ » بِالسَّواحيليّة. بَسيط. واضِح. يُشيرُ في الاتِّجاهِ الصَّحيح.

لم يَكُن هذا المَشروعُ مُجَرَّدَ فِكرَة. كانَ يَحمِلُ رِسالَةَ حَياة. أَرَدتُ أن أَستَجيبَ لِأَزمَةِ المَسكَن بَينَما أُكَرِّمُ البيئة — أن أُقَدِّمَ حُلولاً مُستَدامَةً ومُتاحَةً لِلأَجيالِ القادِمة. حُلمٌ مُتَأَصِّلٌ في كُلِّ ما

عَلَّمَتني إيّاهُ السَّنَوات: التَّرابُط، أَهَمّيّةُ خِدمَةِ الآخَرين، وضَرورَةُ تَوازُنٍ بَينَ الإنسانيّةِ والطَّبيعة.

كانَ ذلك أَيضاً، أَدرَكتُهُ شَيئاً فَشَيئاً، جَواباً عَلى ما قالَتهُ لي أُمّي في بِدايَةِ التِّسعينات، في لَحظَةٍ لم أَنسَها أَبَداً:

« يا ماما حبيبي، بهالحياة، أهمّ شي هو الأثر يلّي بِيتركو كلّ واحد منّا وراه. المصاري بتروح وبتجي — بس هالأشيا يلّي بتبقى من بعد ما نروح، أهمّ بكتير. »

شانيا كانَت أَثَري. الشَّكلُ الذي انتَهى إليهِ جَوابي عَلى تِلكَ العِبارة.

رُؤيَةٌ تَنمو وتَتَبَدَّل

مَعَ الوَقت، تَطَوَّرَت شانيا — من قَريَةٍ بيئيّة إلى مُقارَبَةٍ أَكثَرَ مُرونَةً لِمَساكِنَ بيئيّة. هذه المَساكِنُ مُصَمَّمَةٌ لِتَكونَ في مُتَناوَلِ الجَميع، مُبتَكَرَة، ومُحتَرِمَةً لِلبيئة. تَستَجيبُ لِضَرورَتَينِ مُتَشابِكَتَين: أَزمَةُ البيئة، ونُدرَةُ المَسكَنِ في مُتَناوَلِ النّاس — ضَرورَتانِ لا تَنفَصِلان.

شانيا أَكثَرُ بِكَثيرٍ من مُجَرَّدِ جَوابٍ عَلى تَحَدّياتٍ مُعاصِرة. هي رُؤيَةٌ لِمُستَقبَلٍ يُشَكِّلُ فيهِ الانسِجامُ مع الطَّبيعة والتَّضامُنُ بَينَ البَشَر، الأُسُسَ ذاتَها لِحَياتِنا المُشتَرَكة.

مِيراثٌ مَلموس

كَثيراً ما تَأَمَّلتُ ما تُجَسِّدُهُ شانيا حَقّاً بِالنِّسبَةِ إليّ. أَبعَدَ بِكَثيرٍ من كَونِها مَشروعاً مِعمارياً أو بيئيّاً، صارَت كيمياءَ ابتِلاءاتي وتَطَلُّعاتي — عُبوراً بَينَ أَعماقِ الرُّوحِ الخَفيَّة والالتِزاماتِ المَلموسةِ في الفِعل.

من خِلالِها، تَجِدُ جِراحي مَعنىً. تَأخُذُ أَحلامي شَكلاً. وما تَعَلَّمتُهُ يُفيدُ غَيري.

كُلُّ جِدارٍ مَطبوعٍ يَحمِلُ ذاكِرَةَ دَرس.

وكُلُّ إنجازٍ يَهمِسُ بِالمُثابَرَةِ التي وُلِدَت من الرِّياحِ المُعاكِسَة.

شانيا هي النَّفَسُ الحَيُّ لِميراثٍ أَوَدُّ أن أُقَدِّمَهُ لِلعالَم — مِيراثٌ يَنبَعُ من التَّجرِبة، ويَمتَدُّ نَحوَ الكَونيّ.

تِلكَ الخَيمَة، في « بوم فِستيفال » — بِأَسئِلَتِها المُلِحَّةِ وأَمَلِها غَيرِ المُحتَمَل — تَبقى مَنقوشَةً فِيَّ كَمَهدِ كُلِّ ما تَلا. أَهدَتني إلهاماً لا يُقَدَّرُ بِثَمَن، وأَرَتني أنّ عالَماً آخَرَ مُمكِن: عالَمٌ نَرقُصُ فيه، ونُغَنّي، ونَحلُمُ مَعاً — وحَيثُ نَنطَلِقُ بَعدَها إلى العَمَل.

سَأُتابِعُ هذا الحُلمَ ما دامَ نَفَسي يَسمَحُ لي.

هو يَمنَحُ حَياتي مَعنىً عَميقاً.

ويُنيرُ الطَّريقَ لأولئكَ الذينَ أَوَدُّ مُرافَقَتَهُم.

⌘

الفصل التاسع

الأَندَلُس

إسبانيا، ٢٠١٧ ـــ جَماعةُ صَنسيد

بِطاقَةُ الصَّداقة

في صَباحِ يَومٍ رَحيلي عن «صَنسيد ديزِرت تِكنولوجي» (Sunseed Desert Technology)، أَهدَتني الجَماعةُ بِطاقَةً كَبيرةً مَصنوعةً باليَد.

ما زِلتُ أحتَفِظُ بها. إنها مُغَطّاةٌ بالكِتاباتِ ـــ خُطوطٌ مُختَلِفة، ولُغاتٌ مُختَلِفة، وأصواتٌ مُختَلِفة ـــ كُلُّها تَقولُ صِيَغاً مُتَنَوِّعةً للشيءِ نَفسِه. عِبارَتانِ بَقِيَتا عالِقَتَينِ في قَلبي أكثَرَ من سِواهُما.

الأولى:

«أنتَ كَالمَنارَة، تُضيءُ شُكوكَنا في العَتمَة. شُكراً لكَ على كُلِّ ما أَعطَيتَنا.»

والثانية:

«حِكاياتُكَ أَيقَظَت في نَفسي رَغبَةَ المُصالَحَةِ بَينَ ماضيَّ ومُستَقبَلي. شُكراً لإصغائكَ ولُطفِكَ.»

كُنتُ قد وَصَلتُ قَبلَ ثَلاثَةِ أشهُر بصِفَتي غَريباً تَماماً — في الخامِسةِ والخَمسينَ من عُمري، مُحاطاً بشَبابٍ يَتَمَحوَرُ مُتَوَسِّطُ أعمارِهِم حَولَ الخامِسةِ والعِشرين، في جَماعةٍ تَقَعُ في جَنوبِ إسبانيا حَيثُ اللُّغةُ الأساسيّةُ هي الإنكليزيّة، والنَّشاطُ الأساسيُّ هو تَعَلُّمُ حَياةٍ مُستَدامةٍ بقَليلٍ جِدّاً. كانَ بإمكاني أن أكونَ أباهُم. مُعظَمُهُم لم يَعرِفوا في البَدءِ ما يَنبَغي أن يَظُنّوهُ بي.

هذِهِ هي قِصّةُ كَيفَ انتَهَت تِلكَ البِطاقَةُ بأن تُكتَب.

بَحْثاً عن رُؤيَةٍ جَماعيّة

لكي أُصقِلَ شانيا، كانَ عَلَيَّ أن أَفهَمَ ما هو المُجتَمَع — لا في النَّظَرِيّةِ بل في المُمارَسَة. في تِلكَ المَرحَلة، كُنتُ ما زِلتُ أُغَذّي طُموحَ بِناءِ قَريَةٍ بيئيّة، قَبلَ أن أُعَدِّلَ رُؤيَتي لاحِقاً نَحوَ مَسكَنٍ بيئيٍّ ميسورِ التَّكاليف.

فِكرَةُ الانضِمامِ إلى جَماعةٍ لِبضعةِ أشهُرٍ لم تَكُن مُطَمئِنةً البَتّة. كانَت تَعني الخُروجَ من مِنطَقَةِ راحَتي، والانغِماسَ في بَلَدٍ غَريب، والتَّنَقُّلَ في يَوميّاتٍ لا تَجري بالفَرَنسيّةِ ولا بالعَرَبيّةِ ولا بالهولَنديّة.

كانَ صَديقي «ميكا» (Mika) — الذي يَسكُنُ قُربَ «ماربيلّا» (Marbella)، في جَنوبِ إسبانيا — هو من أعطاني الدَّفعةَ الحاسِمة. خِلالَ حَديثٍ عن شانيا، صارَحتُهُ بصُعوباتي في تَصَوُّرِ قَريَةٍ بيئيّةٍ وأنا لم أَعِش يَوماً في واحِدة. تَجرِبَتي المُباشِرةُ الوَحيدةُ

كانَت قَصيرة ـــ أيّامٌ مَعدودَةٌ أُنَشّطُ فيها وَرَشاتِ خَطٍّ عَرَبيٍّ خِلالَ سَنَواتِ دِراساتي في التَّصميم.

أَجابَني ميكا ببَساطة:

«ليش ما بتروح تعيش بجماعة كم أسبوع أو كم شهر ـــ تشوف، تتعلّم، وتستلهم؟»

ظَلَّت نَصيحَتُهُ تَرِنُّ في داخِلي طَوالَ طَريقِ العَودَةِ إلى بوردو.

صَنسيد ديزِرت تِكنولوجي

بَعدَ أسابيع، قادَتني أبحاثي إلى صَنسيد ـــ مُنَظَّمَةٌ بيئيّةٌ تَختَبِئُ في تِلالِ جَنوبِ إسبانيا، وتُقَدِّمُ مَزيجاً نادِراً: الحَياةَ في جَماعةٍ مع مُساهَمةٍ فاعِلَةٍ في مَشاريعَ بيئيّة.

كانَ مَوقِعُها الإلِكتروني يَحمِلُ هذه الكَلِمات، التي شَدَّت انتِباهي على الفَور:

«نَحنُ مَشروعُ تَعليمٍ غَيرِ رَسميٍّ مُكَرَّسٌ للانتِقالِ البيئيّ الاجتِماعيّ في الأَندَلُس، جَنوبَ إسبانيا. بأكثرَ من خَمسةٍ وثَلاثينَ عاماً من اللَّعِبِ والعَمَلِ والبَحثِ والتَّعَلُّمِ والاختِبار، نَسعى إلى إلهامِ الناسِ من جَميعِ أرجاءِ العالَمِ وإشراكِهِم في الانضِمامِ إلى حَرَكَةٍ نَحوَ ثَقافَةِ العِنايَةِ بالكائِناتِ وبالكَوكَب.»

أَغرَتني فِكرَةُ الإقامةِ هُناكَ على الفَور.

انغِماسٌ في فُقّاعةِ حياة

في عامِ ٢٠١٧، حامِلاً فُضولاً مَخلوطاً بقَلَق، قَصَدتُ المَكان.

اتَّسَمَ وُصولي بِشَيءٍ من التَّحَفُّظِ من قِبَلِ المُقيمين. في الخامِسةِ والخَمسين، كُنتُ مُحاطاً بشَبابٍ يَتَمَحوَرُ مُتَوَسِّطُ أعمارِهِم حَولَ الخامِسةِ والعِشرين — كانَ بإمكاني أن أكونَ أباهُم. حَذَرُهُم كانَ مَفهوماً. كُنتُ غَريباً تَماماً: أكبَرَ سِنّاً، لُبنانيٌّ-فَرَنسيّ، حامِلاً مَشروعاً لم يَسمَعوا به أبَداً، ومَسيرةَ حَياةٍ بلا تَشابُهٍ ظاهِرٍ مع مَسيرَتِهِم.

لكن في غُضونِ أيّام، تَغَيَّرَ شَيءٌ ما. حَلَّ الفُضولُ مَحَلَّ التَّحَفُّظ. ثُمَّ حَلَّت، شَيئاً فَشَيئاً، المَوَدّة. تَجرِبَتي، ونَوادِري، وطَبخي — لا سِيَّما وَصَفاتي اللُّبنانيّة — كَسَبَت قُلوبَهُم بِطَريقَةٍ لم أَكُن أَتَوَقَّعها.

لمُفاجَأتي، اكتَشَفتُ عِدّةَ ناطِقينَ بالفَرَنسيّةِ في المَجموعة: كَنَدِيّون، بَلْجيكِيُّون، وبَعضُ الفَرَنسيّين. حَتْماً، عِندَ مَواعيدِ الوَجَبات، كانَت تَتَكَوَّنُ مَجموعَتان — النّاطِقونَ بالإنكليزيّةِ والناطِقونَ بالفَرَنسيّة — وداخِلَ هذه الأخيرة، أصبَحتُ، من دونِ أن أُريد، أَباً حَنوناً: أَبٌ يَسهَرُ على صِغارِهِ بِمَزيجٍ من الحَنانِ والدُّعابَةِ الهادِئَة.

ما وَجَدتُهُ هُناك

خِلالَ إقامَتي، اكتَشَفتُ الزِّراعةَ المُعَمِّرَة — لا بوَصفِها نَظَرِيّةً بل مُمارَسةً يَوميّةً، فَنّاً من فُنونِ العَيشِ في انسِجامٍ مع الطَّبيعة. شارَكتُ في وَرَشاتٍ مُكَثَّفة، وتَعاوَنتُ مع مُقيمينَ آخَرينَ في تَصميمِ حَديقَةٍ مُستَدامة، وتَعَلَّمتُ كَيفَ أُدمِجُ هذه الأساليبَ في شانيا.

لكنَّ ما أَدهَشَني أكثَرَ كانَ الغِنى الإنسانيَّ لهذه الجَماعة.

تَحتَ مَظاهِرِهِم المَرِحَةِ ونِقاشاتِهِم الحامِيَة، كانَت تَختَبِئُ في الغالِبِ جِراحٌ عَميقة: نِزاعاتٌ عائِليّة، قِصَصُ هُجران، اضطِراباتٌ كالتَّوَحُّدِ أو ثُنائيّةِ القُطب. مع الوَقت، باحوا لي بهذه الأشياء — واحِداً تِلوَ الآخَر، في زَوايا هادِئة، حَولَ وَجَباتٍ مُشتَرَكة. أصبَحتُ صاحِبَ سِرّ. عَمّاً مَرِحاً قادِراً على الإصغاءِ من دونِ حُكم، وعلى تَقديمِ نَصائحَ بلُطف، وعلى مُشارَكَتِهِم لَحَظاتٍ من الخَيالِ الخالِص. الدَّوْران لم يَتَعارَضا. بَل على العَكس، كانَ أحَدُهُما يُتيحُ الآخَر.

مَصاعِبُ اليَوميّ

لم يَكُن كُلُّ شَيءٍ مُنسَجِماً، بالطَّبع.

قَرارٌ من قَرارَاتِ الجَماعةِ كانَ يُحَيِّرُني بصِدق: رَفضُهُم لاستِعمالِ البَرَّادات — حَتى في مُناخٍ شِبهِ صَحراويّ، حَيثُ كانَت دَرَجاتُ الحَرارةِ الصَّيفيّةُ قاسيَة. إذا كانَ هذا يَندَرِجُ في مَبادِئِهِم البيئيّة، فإن رُؤيَةَ الأَطعِمَةِ تَتَلَفُ من غِيابِ حِفظٍ أَوَّليّ كانَت تَبدو لي

مُتناقِضةً مع هَدَفِ تَقليلِ الإهدارِ نَفسِه. طَرَحتُ السُّؤالَ مَرَّةً، بدِبلوماسيّة، ثُمَّ تَرَكتُه يَستَريح. بَعضُ الخِلافاتِ ليسَت مَصنوعةً لتُحَلَّ ـــ فَقَط لتُلاحَظَ وتُحتَرَم.

ما كانَ يَبقى، أكثَرَ بكَثيرٍ من الخِلافات، هو لَحَظاتُ التَّواصُلِ الأصيل. أصبَحَ فَلافِلي أُسطورةً صَغيرةً داخِلَ المَجموعة. وفي لَيلَةِ ما قَبلَ رَحيلي، حَضَّرتُ بيتزا على الحَطَبِ لكُلِّ الجَماعة ـــ وَليمَةَ وَداعٍ احتُفِلَ بها في فَرَحٍ وصَداقَةٍ حَتّى وَقتٍ مُتَأَخِّرٍ في اللَّيلَةِ الأَندَلُسيّةِ التي ما زالَت دافِئة. هذه الأمسيَةُ من المُشارَكَةِ كانَت أكثَرَ بكَثيرٍ من مُجَرَّدِ وَداع. كانَت طَريقَتي، على شاكِلَتي الخاصّة، لزَرعِ بُذورٍ شانيا قادِمَة ـــ جَماعةٌ تَكونُ فيها التَّغذِيَةُ والدِّفءُ والحُضورُ دائِماً في المَركَز.

رَحيلٌ مُؤَثِّر

في صَباحِ اليَومِ التالي، اجتَمَعوا ليُوَدِّعوني.

وأَعطَوني البِطاقَة.

قَرَأتُها واقِفاً في ضَوءِ الشَّمس، مُحاطاً بِوُجوهٍ لم أَكُن أعرِفُها قَبلَ ثَلاثَةِ أشهُر، وسأَحمِلُها في داخِلي بَقيّةَ حَياتي. تِلكَ الكَلِمات ـــ مَنارة، شُكوك، مُصالَحة ـــ قالَت لي شَيئاً لم أَكُن أَتَوَقَّعُ تَعَلُّمَهُ في شِبهِ صَحراءِ الأَندَلُس: أن أَنفَعَ ما يُمكِنُني تَقديمَهُ ليسَ رُؤيَةً ولا

مَشروعاً ولا مَجموعةً من الكَفاءات. كانَ ببَساطَةٍ الاستِعدادَ للحُضور. الإصغاءَ من دونِ حُكم. المُشارَكَةَ من دونِ تَحَفُّظ.

هذا أيضاً، كانَ دَرساً لشانيا.

دَرْسٌ للمُستَقبَل

هذه التَّجرِبَةُ الأَندَلُسيّةُ تَرَكَت في نَفسي بَصمَةً عَميقة. عَلَّمَتني أن الحُلولَ البيئيّةَ يَجِبُ أن تَستَنِدَ إلى أساساتٍ إنسانيّةٍ وعَمَليّةٍ وواقِعيّة — وأن الاستِدامةَ ليسَت تَحَدّياً تِقَنيّاً فَحَسب، بل تَحَدٍّ عَلائِقيّ. لا يُمكِنُ لمَشروعٍ أن يَستَمِرَّ من دونِ احتِضانِ كُلِّ غِنى وتَعقيدِ التَّفاعُلاتِ الإنسانيّة.

مُسَلَّحاً بهذا الفَهم، عُدتُ إلى بوردو برُؤيَةٍ مُصَقَّلة — لم تَعُد فَقَط للقُرى البيئيّة، بل لِمَساكِنَ فَرديّةٍ مُتَكَيِّفَةٍ مع وَقائعِ عالَمِنا. مَنازِلُ قادِرَةٌ على احتِضانِ لا أجسادٍ فَحَسب، بل حَيَوات.

المَنارَةُ، في الخِتام، احتاجَت إلى العَتمَةِ بقَدْرِ ما احتاجَ إليها أولئكَ الذينَ التَفَتوا إليها طَلَباً للنور.

الفصل العاشر

نـادي شاستـرا

فَرَنسا ـــ الهِند ـــ جَنوبُ أَفريقيا، ٤ سبتمبر ٢٠٢٤ ـــ القِراءَةُ عبرَ «زوم»

الاسمُ الأَوَّل

رَفَعَ عَينَيهِ عن ورَقَةِ النَّخيل، اِبتَسَمَ بيَقينٍ هادِئ، ثُمَّ نَطَق. أَوَّلاً، اسمي الفَرَنسيّ. ثُمَّ اسمي اللُّبنانيّ. بهذا التَّرتيبِ تَماماً ـــ كَما يَرِدانِ في وَثائِقي الرَّسميّة.

بَقيتُ ثابِتاً أمامَ شاشَتي في بوردو، على بُعدِ آلافِ الكيلومِترات من الكاهِنِ ومُتَرجِمِهِ في الهِند، وعلى آلافٍ أُخرى من المُيَسِّرَةِ المُتَّصِلَةِ من جَنوبِ أَفريقيا. كانَ اتِّصالُ «زوم» (Zoom) يَبدو في ظاهِرِهِ كاجتِماعٍ عاديٍّ عن بُعد. لكِنَّ ما كانَ يَجري فيهِ لَم يَكُن عاديّاً في شَيء.

كُنتُ أَحمِلُ اسمي الفَرَنسيَّ مُنذُ عُقود ـــ اِختَرتُهُ عِندَ تَجَنُّسي، وتَبَنَّيتُهُ تَيسيراً للَّفظِ فَحَسب، قَراراً عَمَلِيّاً اتَّخَذَهُ راشِدٌ في بَلَدٍ غَريب. لَم يَكُن الاسمَ الذي أُعطيتُهُ عِندَ الوِلادة. لَم يَكُن الاسمَ الذي كانَت أمّي تَهمِسُهُ عَلَيَّ في الطُّفولة. كانَ اسماً اِختَرتُهُ بنَفسي، بحُرّيّة،

كَفِعلِ إرادَةٍ واعِيَة. ومع ذلك، كانَ مَنقوشاً على ورَقَةِ نَخيلٍ قَبلَ آلافِ السِّنينَ من أن أَتَّخِذَ هذا الاختِيار.

بَقيتُ مع ذلكَ طَويلاً. ولا أَزالُ معهُ، بمَعنىً ما.

ذلكَ أنّ هذا الاسم — هذا الاسمَ الخاصَّ، الشَّخصيَّ، المُختارَ بحُرّيّة — إن كانَ هُناكَ مُسبَقاً، يَنتَظِرُ قِراءَتَهُ في اللَّحظَةِ المُلائِمَة، فالسُّؤالُ الذي يُثيرُهُ لا يُحَلُّ بهذه السُّهولة:

هَل نَقودُ حَياتَنا حَقّاً؟ أم نَلعَبُ سيناريو كُتِبَ قبلَ وُصولِنا؟ وإن كانَ كذلِك — مَن كَتَبَه؟ ولِماذا؟

صَباحٌ عاديّ، رِحلَةٌ لا تُنسى

كانَ الأمرُ قد بَدَأَ ببَساطَةٍ كافِية. لِهذه الاستِشارَة، لَم أُرسِل سِوى بَصمَةِ إبهامي الأيمَن — وهي الأساسُ بالنِّسبَةِ للرِّجال — حَيثُ مُسِحَت وأُرسِلَت إلى كاهِنِ «نادي شاسترا» (Nāḍī Śāstra) ومُتَرجِمِهِ في الهِند. لَم تُطلَب مِنّي أيُّ مَعلومَةٍ أُخرى. لا اسمي، ولا تاريخُ ميلادي. ولا تَفصيلٌ شَخصيٌّ واحِد.

تَخدِمُ هذه البَصَماتُ الفَريدة في تَحديدِ مَوقِعِ الرَّبَطات (bundles) التي تَحوي السِّجِلّاتِ الخاصَّةَ بشَخصٍ بعَينِه — مَجموعاتٌ تَبلُغُ مِئَةً وثَمانيَ ورَقَةِ نَخيل، مَحفوظَةً بعِنايَةٍ عَبرَ القُرون، مَنقوشَةً بصيغَةٍ قَديمَةٍ من «التَّاميليّة» (tamoul) بأيدي حُكَماءَ بَلَغوا حالاتٍ مُوَسَّعَةً من الوَعي.

يُؤَكِّدُ التَّقليدُ أنّ هذه الأوراقَ أَملاها ثَمانيَةَ عَشَرَ «ريشي» (Rishi) من عِظامِ حُكَماءِ الهِند — مِن بَينِهِم «المَهارِشي أَغَستيا» (Maharishi Agastya)، أحَدُ أَكثَرِ الحُكَماءِ تَكريماً في هذا النَّسَب. أمّا ورَقَتي، فسَأَعلَمُ مِن الكاهِن، أنّها أُمليَت على لِسانِ أَغَستيا نَفسِه.

بَدَأَتِ العَمَليّةُ بمَرحَلةٍ تُسَمّى «المُطابَقة» (matching) — حَيثُ يَقرَأُ الكاهِنُ بصَوتٍ مُرتَفِع، ورَقَةً تِلوَ الأُخرى، الأوراقَ الصُّلبَةَ المَجموعَةَ في رَبَطات، كُلُّ ورَقَةٍ مَنقوشَةٌ بِحِبرٍ في لُغَةٍ مُقَدَّسَةٍ سَيّالَة، تُستَعمَلُ مُنذُ قُرونٍ لِنَقلِ هذه الحِكمَة. كانَ صَوتُهُ يَعلو ويَنخَفِضُ كصَلاةٍ سَيّالَةٍ آسِرَة. بَدَت كُلُّ كَلِمَةٍ تَهتَزُّ في الفَضاء، حامِلَةً ثِقَلاً مَهيباً.

فَتَحَ هذا التَّرتيلُ في داخِلي شَيئاً — مَوجَةً لَطيفَة، كأنّ هذه الأصواتَ القَديمَةَ تُوقِظُ ذاكِرَةً نَسيَها عَقلي مُنذُ زَمَن، لكِنَّ روحي تَعَرَّفَت إليها فَوراً.

لَم تَكشِف الرَّبطَةُ الأُولى عن أيّ شَيءٍ يَخُصُّني. لكِن عِندَ الثُّلُثِ الأوَّلِ من الرَّبطَةِ الثانية، تَبَدَّلَ كُلُّ شَيء.

دِقَّةُ الانكِشافات

بَعدَ الأَسماء جاءَ كُلُّ ما تَبَقّى — بدِقَّةٍ لَم تَترُك لي أيَّ مُتَّسَعٍ لِشَكٍّ مُريح.

أُصولي. الأسماءُ الدَّقيقَةُ لِوالِدَيّ. تاريخُ مَولِدي وساعَتُهُ. عَلاقَتي الفَريدَةُ المُعَقَّدَةُ بأخي. صِلَتي الحَشَويّةُ، التي لا بَديلَ عَنها، بأمّي ـــ والمَسافَةُ العاطِفيّةُ التي وَسَمَت طَويلاً عَلاقَتي بأبي. ثُمَّ: تَعَلُّقي الصَّادِقُ المُتَناغِمُ بأُختَيّ.

تَوَرُّطي في قَضيّةٍ قانونيّةٍ مُعَقَّدَة، طالَ أَمَدُها، لكِنّها ستَنتَهي لِصالِحي. الثِّقَةُ التِّلقائيّةُ التي أَمنَحُها لِلغُرَباء ـــ لكنَّ الطّابَعَ الحاسِمَ الذي أَسحَبُها بهِ مِمَّن يَخونونَها.

وتَحذيرٌ كُنتُ قد حَدَستُهُ طَويلاً، لكنّي لَم أَسمَعهُ مَنطوقاً بهذا الوُضوحِ قَطّ: الغَيرَةُ تُحيطُ بي، حتّى من بَينِ الذينَ يَبدونَ ودوديّين. كانَ بَعضُهُم، رَغمَ دَفءِ ظاهِرِهِم، يَأمَلونَ سِرّاً في فَشَلي. سَماعُ هذا مَنطوقاً بصَوتٍ عالٍ أَوضَحَ أَشياءَ كَثيرَةً كُنتُ قد أَحسَستُ بها سَنَواتٍ دونَ أن أَستَطيعَ تَسميَتَها.

سُؤالُ الإرادَةِ الحُرّة

كَيفَ يُمكِنُ لتَقليدٍ يَتَجاوَزُ عُمرُهُ ألفَينِ وخَمسَ مِئَةِ سَنَة أن يَحوي، بهذه الدِّقَّة، أَدَقَّ شَظايا حَياةٍ لَم تَكُن قد عُيِشَت بَعدُ حينَ كُتِبَتِ الأوراق؟

شَرَحَ الكاهِنُ أنّ هذه الأوراق، وإن كُتِبَت قَبلَ زَمَنٍ طَويل، لا تَنشَطُ إلاّ حينَ تُقرَأُ في اللَّحظَةِ المُلائِمَة. هي تَكشِفُ ما يَلزَمُ لِتَطَوُّرِ

الرّوح — لا الحَياةَ بأَسرِها، بَل المَفاصِلَ الجَوهَريّةَ التي يَنبَغي عُبورُها.

تَشهَدُ هذه الحِكمَةُ على انفِتاحٍ عَميق: لا حاجَةَ لأن تَكونَ هندوسيّاً، ولا حتّى مُؤمِناً، لِتَكونَ ورَقَتُكَ مَوجودة. هي تُخاطِبُ الجَميع، فيما وَراءَ الإيمانِ والثَّقافَةِ والقَوميّة.

تُؤَكِّدُ بَعضُ التَّعاليمِ أنّنا، بَينَ حَياتَينِ، نَختارُ بأنفُسِنا والِدَينا وامتِحاناتِنا ولِقاءاتِنا. وبحَسَبِ الكاهِن، كُنتُ في تَجَسُّدي السّادِس — ولَم يَبقَ لي سِوى تَجَسُّدٍ واحِد. كانَت هذه الوَرَقَةُ قد صيغَت قَبلَ آلافِ السِّنين. ومع ذلِك، كانَت تَعرِفُ الاسمَ الذي سأَختارُهُ لِنَفسي في القَرنِ العِشرين.

أَنَحنُ مُؤَلِّفو حَياتِنا؟ أم مُمَثِّلوها؟ أم مُجَرَّدُ قُرّاءٍ — نَصِلونَ، أخيراً، إلى الصَّفحَةِ المَكتوبَةِ لَنا سَلَفاً؟

هذه الأَسئِلَةُ لَم تُغادِرني. ولا تَزالُ مَعي إلى اليَوم.

صَحوَةُ الرُّوحِ عَبرَ التَّجَسُّدات

من بَينِ الانكِشافات، أَعلَنَ الكاهِنُ أنّ روحي عاشَت سِتَّةَ تَجَسُّداتٍ قَبلَ هذا، ولَم يَبقَ لي سِوى تَجَسُّدٍ واحِد. بَعدَ هذا العُبورِ الأرضيِّ الأخير، لَن تَكونَ ولادَةٌ جَديدَةٌ لازِمة. ستَكونُ خاتِمَةَ دَورَة — الرّوحُ، وقد أَتَمَّت دُروسَها في المادّة، حُرَّةً في الانضِمامِ إلى مُستَوىً آخَرَ من الوُجود: أَوسَع، وأَسطَع، فيما وَراءَ الثُّنائيّة.

تَرَدَّدَت هذه الرُّؤيَةُ في أعماقي. كانَت تُجاوِبُ حَدسي الخاصَّ بالطَّبيعَةِ الدَّوريّةِ لِلحَياة، حَيثُ كُلُّ تَجَسُّدٍ مَرحَلَةُ تَعَلُّم — تَجَرُّدٌ مِمّا لَم يَعُد لازِماً، وتَعميقٌ لِما يَبقى جَوهَريّاً.

إن كانَت هذه الحَياةُ هي ما قَبلَ الأَخيرة، فإنّ كُلَّ امتِحان، وكُلَّ لِقاء، وكُلَّ انكِشاف، يَأخُذُ ثِقَلاً خاصّاً. ليسَ نِهاية. بَل تَهيِئَة. عَودَةً إلى الأصلِ الصّامِتِ لِكُلِّ ما كان، وما هو كائِن، وما سَيَكون.

إنباءاتٌ شَخصيّةٌ ومِهَنيّةٌ مُحَيِّرة

تَناوَلَت القِراءَةُ أيضاً جَوانِبَ مَلموسَةً من حَياتي الحاضِرَةِ والقادِمَة. أَعلَنَت أنّ سَنَتَي ٢٠٢٥ و٢٠٢٦ ستَكونانِ سَنَتَي تَحَدّياتٍ مِهَنيّة — لكنَّ «شانيا»، في عامِ ٢٠٢٧، ستُقلِعُ أخيراً، وتُصبِحُ نَجاحاً يَضَعُني في قَلبِ جَماعَةٍ من الشَّباب. سَيُكِنّونَ لي تَقديراً عالياً، يُعَبِّرونَ عن امتِنانٍ هائِلٍ لِما سأُقَدِّمُهُ لَهُم من دَعمٍ ومَشورَةٍ وتَعليم.

تَرَدَّدَ هذا في أعماقي. كانَ يُؤَكِّدُ خِياراً كُنتُ قد اتَّخَذتُهُ — أن أُكَرِّسَ حَياتي لِلآخَرين، دونَ زَواج، ودونَ أَولاد، مُعتَبِراً أنّ كُلَّ طِفل، وكُلَّ شابٍّ يَسعى إلى رَجاء، يَنتَمي إلى عائِلَتي الكَونيّة.

تَحَدَّثَ الكاهِنُ كذلِكَ عن صِلَتي بالطُّيور — هذه الحَمائِمِ وسائِرِ المَخلوقاتِ الحُرَّةِ التي تَأتي لِتَأكُلَ من يَدي دونَ خَوف:

«إنَّها أرواحٌ مُتَجَسِّدَة. تُدرِكُ لُطفَكَ وتُجِلُّك. واصِل إطعامَها. واصِل مَنحَها انتِباهَك.»

دَربُ الرُّوحِ في الآتي

ثُمَّ أَتَت آفاقٌ أَوسَع، وأَبعَد. تَنَبَّأَ بكِتابَةِ كِتاب ـــ وهو ما أَضحَكَني. قُلتُ لَهُ إنّهُ سَيَكونُ بالأَحرى مُدَوَّنَتي التي أُحَرِّكُها مُنذُ سَنَوات. ومع ذلِك، أُدرِكُ اليَومَ أنّ هذه السّيرَةَ الذاتيّةَ أَبصَرَت النّورَ بَعدَ ذلِكَ بنَحوِ عام، دونَ أيّ تَخطيط. كُنتُ قد نَسيتُ التَّنَبُّؤَ نَفسَه. في الحَقيقة، جاءَت من تِلقاءِ ذاتِها ـــ كَما تَأتي الأشياءُ المَكتوبَةُ مُسبَقاً، حينَ تَنضَجُ اللَّحظَة.

أَعلَنَ أنّي، في السَّبعينَ والثّانيَةِ والسَّبعين، سأَبدَأُ حَجّاً روحيّاً عَبرَ العالَم ـــ سَعياً نَحوَ الصَّحوَةِ والإتمامِ على مَدى سَنَتَين، أَزورُ فيه مَراكِزَ وأَماكِنَ سأُساهِمُ فيها بفاعِليّة، بالتَّعليمِ والدَّعمِ المالِيّ.

في الثّالِثَةِ والسَّبعين، سأَبيعُ كُلَّ شَيء. سأَتَوَقَّفُ عن العَمَلِ لِنَفسي ـــ لكنّي سأَستَمِرُّ في العَمَلِ من أَجلِ الآخَرين، لأنّ رِسالَتي هي العَطاءُ والمُشارَكَة. في الخامِسَةِ والسَّبعين، سأُغَيِّرُ نَمَطَ حَياتي تَغييراً كامِلاً.

سَأَلتُهُ، إن كُنتُ، مع تَقَدُّمِ السِّنّ، سأَفقِدُ الذّاكِرَة ـــ كَما فَقَدَها جَدّي ـــ أو سأَحتاجُ إلى مُمَرِّضٍ مُساعِد. طَمأَنَني: ذاكِرَتي ستَبقى سَليمَة، وجَسَدِيّاً، سأَكونُ قادِراً على تَلبيَةِ احتِياجاتي بنَفسي. في الثّامِنَةِ والسَّبعين، سأُغادِرُ هذا العالَمَ إثرَ تَعَقُّدٍ تَنَفُّسيٍّ وقَلبيّ. غَيرَ أنّهُ

أضافَ أنّ بَعضَ المُمارَساتِ الرّوحيّة — «البوجَات» (Poojas) — قد تُطيلُ حَياتي إلى الحاديَةِ والثَّمانين.

أوصى كَذلِكَ باليوغا، وبتَواصُلٍ مُنتَظِمٍ مع الطَّبيعَة — كِلاهُما يُنعِشُني طاقيّاً. عُنصُرايَ، قال، هُما الماءُ والأرض.

أَضحَكَتني هذه النَّصيحَة: كانَ طَبيبي قد قالَ لي تَوّاً ما يَكادُ يَكونُ الشَّيءَ نَفسَه، لأَسبابٍ مُختَلِفَةٍ تَماماً. ساعاتي الطَّويلَةُ من الجُمودِ أمامَ الكُمبيوتر كانَت قد رَفَعَت ثُلاثيّاتي الدُّهنيّة؛ نَصَحَني بشِدَّةٍ بأن أَتَحَرَّك، وأَمشِيَ، وأُمارِسَ اللِّياقَة. أَجَبتُهُ بأنّي أُفَضِّلُ اليوغا. مَرَّةً أُخرى، لاحَظتُ أنّ «نادي شاسترا» كانَ قد تَنَبَّأَ بذلِك — حتّى حينَ نَحَّيتُهُ جانِباً في حينِه. ومن المُذهِلِ أن نَرى كَم نَحتَفِظُ فَقَط بما يَهُمُّنا في لَحظَةٍ بعَينِها، وكَم يَنتَظِرُ الباقي، بصَبر، أن يُعتَرَفَ به لاحِقاً.

شَعيرةُ النّار

كانَ من بَينِ التَّوصِيات شَعيرَةُ نار — «هوما» (Homa) — أَحَدُ أَقدَمِ الطُّقوسِ الفيديّةِ وأقواها. شَرَحَ الكاهِنُ أنّ هذه النّارَ المُقَدَّسَةَ ليسَت رَمزاً بَسيطاً، بَل قَناةٌ حَيَّةٌ للتَّطهير. بالقَرابينِ المُلقاةِ في اللَّهَب، وبالمَنتَرَات (mantras) المُرَتَّلَةِ بحَرارَة، يُمكِنُ للانسِداداتِ الكارميّةِ التي تَكشِفُها ورَقَةُ «نادي شاسترا» أن تُستَهلَكَ في النّار،

وتَتَحَوَّلَ إلى نور، وتُحَرَّرَ في الأَثير. أنا، الذي اعتَدتُ النُّفورَ من الطَّقسِ الدّينيّ، تَأَثَّرتُ في العُمق.

بَعدَ أَشهُرٍ قَليلَة، أُقيمَتِ الشَّعيرَةُ في مَعبَدٍ تَقليديٍّ في الهِند، عِندَ فَجرِ يَومٍ مُبارَك. زُيّنَ المَذبَحُ بالأزهار، والأَرُزّ، والسَّمنِ المُصَفّى، وخَشَبِ الصَّندَل. أُضرِمَتِ النّارُ المُقَدَّسَةُ وَفقَ التَّرتيبِ الطَّقسيّ، تُرافِقُها مَنترَاتٌ تَعودُ إلى آلافِ السِّنين.

رَغمَ غِيابي بالجَسَد، أَحسَستُ بذَبذَبَتِها في العُمق. أُرسِلَ إليَّ مَقطَعُ فيديو: كانَتِ النّارُ تَرقُصُ كَلِسانٍ ذَهَبيٍّ مُضيء، يَلتَهِمُ القَرابينَ على إيقاعِ التَّرتيلِ «السَّنسكريتيّ» (sanskrit). كانَ الكاهِنُ، في تَرَكُّزٍ تامّ، يَنطُقُ اسمي مَرَّةً بَعدَ أُخرى — يَنسُجُهُ في الصَّلَوات، يُرسِلُ بَرَكاتٍ عَبرَ اللَّهَب. شَعَرتُ بصِلَةٍ غَريبَةٍ بهذا المَشهَد، كأنَّ جُزءاً مِنّي قد سافَرَ إلى هُناك لِيَشهَد، في صَمت، تَحَوُّلاً لا يُرى.

قالَتِ الوَرَقَة: «هذا الطَّقسُ سَيَكسِرُ الانسِدادات.» وبالفِعل، مُنذُ ذلك الحين، لانَت مُقاوَماتٌ كانَت راكِدَة. اِنفَرَجَت عُقَد. اِنفَتَحَت أبوابٌ جَديدَة. هَواءٌ جَديدٌ يَسري الآنَ في حَياتي.

لَم تَكُن هذه النّارُ مَشهَداً. كانَت عُبوراً — قُربانَ روحي لانعِتاقِها.

أَصداءٌ بَينَ «نادي شاسترا» و«الآياهواسكا»

حينَ أَنظُرُ إلى الوَراء، لا يَسَعُني إلاّ أن أَصِلَ هذه التَّجرِبَةَ برِحلَتي الأُولى مع الآياهواسكا، قَبلَ تِسعِ سَنَوات. خِلالَ ذلكَ العُبورِ الباطِنيّ، هَمَسَتِ الأُمُّ آياهواسكا إليَّ، بصَفاءٍ مُذهِل:

«اِتَّبِع حَدسَك — سَتَعرِفُ ما تَفعَل.»

رِسالَةٌ صافِيَةٌ من ثِقَة. دَعوَةٌ لأن أَستَسلِمَ لِجَريانِ الحَياةِ المُقَدَّس، دونَ حاجَةٍ إلى فَهمِ كُلِّ شَيءٍ سَلَفاً.

أمّا «نادي شاسترا»، الذي جاءَ بَعدَ سَنَوات، فبَدا جَواباً دَقيقاً على هذا النِّداء. حَيثُ كانَتِ الآياهواسكا تَفتَحُ فَضاءَ الإحساس، والسِّرّ، والوَصلِ المُباشَرِ بالواحِد — كانَتِ الوَرَقَةُ تَنقُشُ قَدَري بوُضوحٍ صَريح. كأنَّ الكَونَ، بَعدَ أن عَلَّمَني الإصغاءَ إلى قَلبي، يُناوِلُني الآنَ خَريطَة.

كانَت كُلُّ كَلِمَةٍ يَقرَؤُها الكاهِنُ تَتَرَدَّدُ مع مَراحِلَ كُنتُ قد عَبَرتُها — تَكشِفُ ببَساطَةٍ ما كانَت روحي تَعرِفُهُ مُنذُ البَدء. تَقليدانِ يَمتَدّانِ آلافَ السِّنين، يَنطِقانِ بلُغَتَينِ مُختَلِفَتَين، يُشيرانِ إلى المَكانِ نَفسِه.

من نَفَسِ الأُمِّ آياهواسكا إلى نارِ «نادي شاسترا»، اِنغَلَقَت دائِرَة. دَورَةُ اعتِراف، وتَطهير، واصطِفاف — حَيثُ اتَّخَذَ اللامَرئيُّ شَكلاً، وحَيثُ عانَقَ القَديمُ الحاضِرَ ليُولَدَ الآتي.

كُلَّما تَقَدَّمتُ، اِزدادَ دَربي وُضوحاً — لا كَمَسارٍ صُلب، بَل كاصطِفافٍ مُقَدَّسٍ بَينَ الحَدسِ والوَحي. لا يُناقِضُ أحَدُهُما الآخَر. مَعاً، يَتَّحِدانِ في سِمفونيّةٍ صامِتَة، تُدَبِّرُها حِكمَةٌ أَعلى.

كأنَّ الكَون، عَبرَ هذَينِ التَّقليدَينِ المُمتَدَّينِ في القِدَم، كانَ يَهمِسُ إليَّ الشَّيءَ نَفسَهُ مُنذُ البَدء:

أنا تَماماً حَيثُ يَنبَغي أن أكون. وكُلُّ شَيءٍ، في الحَقيقة، كانَ دائِماً مُوَجَّهاً.

⌘

الخاتمة

ظَنَنتُ طَويلاً أنّهُ لا بُدَّ من أن نَفهَمَ قَبلَ أن نَستَطيعَ أن نَنقُل. ثُمَّ اكتَشَفتُ أنّهُ يَكفي أَحياناً أن نَقولَ، ببَساطَة، ما هو حَقيقيّ — وإن كانَت تِلكَ الحَقيقَةُ ناقِصَة، أو غَيرَ كامِلَة، أو لا تَزالُ في طَورِ الصَّيرورَة.

هذا الكِتابُ ليسَ بَياناً، ولا بُرهاناً، ولا حَقيقَةً ثابِتَة. هو شَهادَةُ عُبور — رَسمُ دَربٍ داخِليٍّ رافَقَني طَوالَ الطَّريق: ذلكَ التَّوَتُّرُ المُثمِرُ بَينَ ما يُجَذِّرُني وما يَستَدعيني إلى ما وَراء. بَينَ ثِقَلِ الأُصولِ وجاذِبيَّةِ اللامَرئيّ. بَينَ القَطرَةِ والمُحيط.

كُلُّ لِقاء، وكُلُّ رُؤيا، وكُلُّ امتِحانٍ مَنقولٍ في هذه الصَّفَحات، هو مُحاوَلَةٌ لِفَتحِ حِوار — بَينَ الحَميمِ والكَونيّ، بَينَ ما عُشِنَ وما لا يُمكِنُ قَولُهُ تَماماً. وإن وَجَدَت بَعضُ السُّطورِ صَدىً فيكَ، فلَرُبَّما كانَ ذلكَ سَبَبَ وُجودِها الوَحيد.

لا أَعلَمُ إلى أينَ سيَقودُني هذا الدَّرب. لكنّي أَعلَمُ أنّهُ لا يُكتَبُ بالإرادَةِ وَحدَها. يَنبَثِقُ من فَضاءٍ صامِت — شاسِعٍ، حَيّ — تَنبُعُ منهُ الدَّفعَةُ الصّادِقَةُ حينَ تَنضُجُ اللَّحظَة. يُسَمّي بَعضُهُم هذا الفَضاءَ اللهَ. ويُسَمّيهِ آخَرونَ « الطّاو » (Tao)، أو الذّاتَ العُليا، أو الخَواء، أو المَحبوب. وأنا، أُسَمّيهِ ببَساطَةٍ: الواحِد.

أَعلَمُ كذلِكَ أنّي لا أَمشي وَحدي. مُنذُ تِلكَ اللَّيلَةِ البَعيدَةِ من عامِ ٢٠٠٨، حينَ فَقَدتُ كُلَّ رَغبَةٍ في الحَياة، وحينَ جاءَت حُضوراتٌ صامِتَةٌ لِتَنظُرَ إليَّ ببَساطَة، لَم يَنقَطِع هذا الخَيط. لَم أَعُد أَستَخدِمُ البندولَ تَقريباً. لَم أَعُد أَعلَمُ بدِقَّة كَم هُم اليَوم. لكنّي أَعلَمُ أنَّهُم هُناك. تَواصُلُهُم صارَ خَفِيّاً — نَفَس، إشارَة، حَدسٌ صادِقٌ يَأتي في اللَّحظَةِ تَماماً. إن كُنتُ مُصغِياً، يُجيبون. وفي هذا الإصغاء، أَكثَرَ من أيِّ انكِشاف، يَستَقِرُّ الآنَ مَساري.

رُبَّما، في نِهايَةِ المَطاف، ما نُسَمّيهِ « دَرباً » ليسَ سِوى عَودَةٍ بَطيئَةٍ إلى وَحدَةٍ لَم نُغادِرها قَطُّ في الحَقيقَة — عَودَةٍ إلى ما يَصِلُنا بالعالَم، وبأَنفُسِنا، وبهذا السِّرِّ الذي يَدَعُ نَفسَهُ يُلمَحُ، أَحياناً، في نَفَس، أو دَمعَة، أو صَمت.

« في خِتامِ هذا الدَّرب، لَم أَكتَشِفني باحِثاً عن جَواب — اكتَشَفتُ أنّي الجَواب. وما اكتَشَفتُهُ في داخِلي هو ما يَلمَحُهُ كُلُّ كائِنٍ بَشَريٍّ في لَحظَةِ حَقيقَة: أنَّ الأَلَمَ يُعَلِّم، وأنَّ الفَقدَ يُوَسِّع، وأنَّ الحُبَّ يُنير. حِكاياتُنا لَيسَت مُلكَنا وَحدَنا — هي شَظايا نورٍ مَنثورَةٌ في قُلوبِ الآخَرين. والحَياةُ، في جَوهَرِها، لَيسَت سِوى عَودَةٍ دائِمَةٍ إلى الواحِد — يَسكُنُنا كَما نَسكُنُه — في رِحلَةٍ مُشتَرَكَةٍ بلا نِهاية. »

⌘

من أزقّة بيروت الضيّقة إلى صمت بوردو. من الأناشيد المقدّسة في الهند إلى قلب مراسم الآياهواسكا في غابات البرتغال. في «القَطْرَة والمُحيط»، يستعيد فرانسوا وائل بَيضون مسارًا حميمًا وكونيًا — طريقًا يبدأ في الفَقْد وينتهي، بهدوء، في العِرفان. هذه السيرة الذاتيّة ليست بيانًا. إنها شهادة حيّة على سعي — دربٌ تتحوّل فيه المِحَن إلى نور، وتعود فيه قُدرات الروح المنسيّة إلى الظهور شيئًا فشيئًا، ويغدو فيه كلّ لقاء، وكلّ جرح، وكلّ إشارة لا تُفسَّر، مرآةً لشيء لا نهائي. عبر الرؤى والتزامُنات والتجارب التأسيسيّة — انبثاق الكونداليني، والتخاطُر، وحكمة الأسلاف، وكشوفات «ناضي شاسترا» الألفيّة — يكشف السرد عن حقيقة أعمق: أنّ الحياة نفسها دعوةٌ إلى العودة إلى الوحدة. أنّ لا شيء يضيع. أنّنا لم نكن يومًا، في الحقيقة، منفصلين عن الواحد. فرانسوا وائل بَيضون، مصمّم ومستكشف روحي، هو مؤسّس «شانيا»، مبادرة مكرّسة لسكن بيئيٍّ في متناول الجميع. تحمل كلماته صدى مَن عَبَرَ الظلّ والنار — وعاد منها لا بأجوبة، بل بشيءٍ أندَر: اليقين بأنّ الأسئلة نفسها كانت هي الطريق. لا يطلب هذا الكتاب الكثير: فقط صبرَ الإصغاء إلى ما لم نعتَد سماعه. إنه يخاطب الذين يشكّون بقدر ما يخاطب الذين يؤمنون، والباحثين عن الحقيقة، والحالمين الساعين إلى المعنى — وكلّ الذين يسمعون النداءَ الصامتَ للواحد.